الفصل التاسع

مرتفعات عسير

عبر الطريق إلى أبها وادي بيشة قليلاً إلى أسفل قرى السوق، ثم استمر بعدها ماراً بالقرى الصغيرة على الجانب الأيسر، ليتفرع إلى ذهبان على اليسار، بينما توجهنا نحن ناحية اليمين في اتجاه الجنوب الغربي، على طريق من سلاسل جرانيتية، لنعبر وادي عتود على مسافة نصف ميل أعلى قرية الخلصة. كان الأتراك، أثناء فترة احتلالهم لهذه البلاد التي نُسيت تماماً، قد قاموا بالفعل بتعبيد طريق من ذهبان إلى أبها[1]، ونستفيد نحن الآن مما تبقى منه بعد عشرين عاماً من الإهمال، تلتها محاولات حديثة لصيانة أجزائه التالفة، لم يكن طريقاً سيئاً، على كل حال، لولا أنه صعب وبشكل واضح في بعض المواقع.

وجدنا أثرين من آثار العصور القديمة عند المضيق الذي يشق السلسلة الجرانيتية بالقرب من جانب عتود الأيسر. كان الأول منهما، جلموداً جرانيتياً ضخماً وكان وجهه المسطح المقابل للطريق مغطى برسومات لعدد من الحيوانات وبعض النقوش الثمودية أو الوسوم، وكانت متآكلة بسبب الطقس، كما كانت مخدوشة أكثر منها منحوتة على الصخر وكانت الثانية فنجاناً عميقاً، أو حوضاً أو مغرفة كبيرة، وقد

---

(١) الأتراك حكموا منطقة عسير حوالي نصف قرن من الزمان من عام (١٢٨٩ ــ ١٣٣٧هـ / ١٨٧٣ ــ ١٩١٩م)، ولمزيد من التفاصيل عن تاريخهم في جنوبي البلاد السعودية، وبخاصة بلاد عسير، انظر: غيثان بن جريس. «وثائق من عسير خلال الحكم العثماني» **مجلة العرب**، حـ (٣ ــ ٤) س (٢٨) ١٤١٢هـ / ١٩٩٣م) ص ١٥٤ ــ ١٧٠ (القسم الأول)؛ **مذكرات سليمان شفيق باشا (متصرف عسير)**. جمع وإعداد محمد أحمد العقيلي (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م) ص ٩ وما بعدها.

يكون طبيعياً أو غير ذلك، في كتلة جرانيت على الجانب الآخر من الطريق وتسمى محلياً «مدير عنتر».

ورد ذكر الخلصة في الأدب العربي في العصور الوسطى بأنه مقر «صنم»، أو مكان للطواف، ويعد أهل خميس مشيط، أن الصخرة المنحوته في هذا المضيق هي النصب التذكاري الذي أشار إليه القدماء. يوجد من الأسباب ما يفيد أن الخلصة الوارد ذكرها في الآداب القديمة، هي موقع آخر بالاسم نفسه في جبال الحجاز والذي -للأسف- لم أزره مطلقاً[(١)]. لم تبدُ نقوش بيشة مثيرة، ويظهر وكأنها ليست إلا أسماء لرحالة سجلوها تذكاراً لمرورهم بهذا المكان.

يتجه الطريق بصفة عامة، مع السماح لبعض التعرجات، ناحية الغرب فيما يلي وادي عتود، وفوق سلاسل من تلال سطحية في هذه البلاد، تقاطعها شعيبات عديدة صغيرة، كان علينا أن نعبرها كانت منحدرة أو صاعدة، في سلسلة جبلية متناهية في الطول وطرق متعرجة، ينتج عنها ارتفاع تدريجي للطريق. كان المنظر العام هو نفسه، عند كل القمم المتتابعة، كذلك المنظر الذي رأيناه من برج عبدالوهاب، والذي ألقينا منه نظرة أخيرة، ناحية الخلف، على سلسلة جبلية تبعد حوالي ثلاثة أميال ونصف الميل، وقفت كتلتا جبل دخان إلى ناحية الجنوب

(١) صنم ذو الخلصة الذي ذكر فيلبي يقع في بلاد السروات، وعلى وجه الخصوص في بلاد غامد، وكان يُعرف بالكعبة اليمانية، وتحج إليه عدد من القبائل في الجاهلية مثل: قبائل دوس، وخثعم، وبجيلة وغيرها. وللمزيد عن تاريخ هذا الصنم في الجاهلية والإسلام، انظر: محمد بن سعد. **الطبقات الكبرى** (بيروت: دار صادر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) حـ٢، ص ١٥٧ ــ ١٥٨، محمد بن إسماعيل البخاري . . **صحيح البخاري** (بيروت: دار العربية للطباعة والنشر، د.ت) مج (٣)، حـ (٥) ص ١٢٣، عثمان بن بشر. **عنوان المجد في تاريخ نجد** (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د. ت) حـ١، ص ١٨١ ــ ١٨٢ . (ابن جريس).

الشرقي من عند هذه النقطة، معلِّمة بلاد بني حموض شهران، بينما بدأنا نرى أمامنا، تجاه الغرب، الروابي الصغيرة لوادي حجلا المهم الذي يصرف معظم مسايل هذه البلاد في وادي أبها، الذي بدوره يتحد في نهاية الأمر، مع وادي بيشة عند أعلى قرية الجنفور. يعد مجرى حجلا الحدود الإدارية المؤثرة بين منطقتي خميس مشيط وأبها[1]، ولكن الأهالي المحليين يضعون الحدود على الطريق عند موقع كان الأتراك يقيمون معسكرهم فيه، أثناء قيامهم بإنشاء الطريق، ولا يزال هذا الموقع معلَّماً بفرن للخبز ضخم كان يعد فيه الخبز الذي كانوا يحتاجونه.

كان طريقنا، يتبع بطن شعيب حموض تقريباً، أحد روافد حجلا، الذي ينطلق من سلسلة جبلية كنا قد ألقينا النظرة الأخيرة عندها على خميس مشيط. كانت قيادة السيارات هنا فوق تربة متينة مغطاة بالحشائش كما كانت هنالك أعداد كبيرة من أشجار الطلح الجيدة النمو في أسفل الشعيب. بقي القليل الآن لندخل حجلا، الذي عبرنا حوضه الرملي الحصوي عند الساعة الواحدة ظهراً، حوالي تسعة أميال فقط من نقطة البداية. يقوم حاجز كثيف ضخم من أشجار التين البري على امتداد الجانب الآخر للوادي، بينما في المجرى وحوله كانت هنالك أشجار طلح عديدة من حجم كبير.

بدا لنا أن هذا موقع مثالي لإغفاءة الظهر ولكن، ما أن أقمنا في مواقع مريحة وتحت ظل سور التين، حتى أخذتني الرعشة والحمى، كما حدث لي في الحنجور قبل ثلاثة أيام. على أي حال كانت الحمى أكثر خطورة هذه المرة، وظلت

(١) حجلا: بعض المصادر توردها (حجلا) وأخرى تكتبها (حجلة)، وتقع بين مدينتي أبها وخميس مشيط، وقد تبدل اسمها في الوقت الحالي إلى اسم (مدينة سلطان)، نسبة إلى الأمير سلطان بن عبدالعزيز. (ابن جريس).

الحمى متمكنة مني، ماشياً أو نائماً، حتى الساعة العاشرة مساءً. شعرت بتحسن بعد ذلك، ونمت نوماً عميقاً حتى الساعة الرابعة صباحاً عندما أوقظت لصلاة الفجر.

تجولت بين الصخور، ما بين ذلك الوقت والساعة التاسعة صباحاً، باحثاً عن الطيور ومتفقداً المباني الغريبة التي تكوِّن القرية الصغيرة والمجتمع الفقير من بني مالك، قسم من حلف عسير العظيم[١]. كانت مساكنهم، منتشرة على انفراد بين مساحات لمزارعهم البالية الهزيلة - وجذامية في هذا الوقت التي كانت غريبة كأي شيء لم أر مثله ومعلماً تقدمياً إلى أسلوب جديد في فن العمارة. كان كل مسكن وكأنه برج مراقبة وليس بمنزل - طويلاً جداً بالقياس إلى قطره - اسطواني الشكل وبه -وعلى فترات على طول امتداده- شرائح صخر اردوازي بارزة ومنحدرة قليلاً إلى أسفل، لكي تقي الجدران من الأمطار العنيفة في هذه الأجزاء. أكسبت هذه الشرائح الأبراج مظهراً شرقياً فبدت كأنها الهيكل أو المعبد الصيني. تبدو معظم الأبراج التي تتخللها مساكن عادية ذات مظهر رديء ومدمرة، وتعكس بلا شك فترة مبكرة لا سلام فيها في التاريخ المحلي. حينما كان منزل كل مزارع هو -بالفعل- قلعته للدفاع عن نفسه ضد هذا العدو الغازي[٢].

---

(١) اسم (عسير) أساساً يطلق فقط على أربع قبائل رئيسة في مدينة أبها وما حولها وهي: ــ بنو مغيد، وعلكم، وربيعة ورفيدة، وبني مالك. ولكن القوى السياسية التي استوطنت مدينة أبها منذ قرنين من الزمان كانت تتخذ من هذه المدينة مقراً للعاصمة ثم تمد نفوذها في كل الجهات، وأحياناً تتسع وأحياناً تتقلص حسب الأوضاع السياسية، ومع مرور الزمن وتعاقب القوى والإمارات على هذه البلاد منذ أيام الدولة السعودية الأولى، صارت بلاد عسير (كمسمى إداري) تمتد من ظهران الجنوب إلى زهران؛ وفي وقتنا المعاصر تمتد من حدود منطقة نجران شمالاً إلى حدود منطقة الباحة جنواباً. (ابن جريس).

(٢) تكثر في منطقة عسير الأبراج المبنية من الحجارة أو الطين، أو بهما معاً، وتستخدم لأهداف عديدة، منها ما هو عسكري، أو اقتصادي، أو اجتماعي، وللمزيد انظر: غيثان بن جريس. **عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية (١١٠٠ ــ ١٤٠٠هـ / ١٦٨٨ ــ ١٩٨٠م)**. (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ص ٥٣ وما بعدها. (ابن جريس).

وجدت فيما بين الصخور ثعلباً متسللاً، لم أنجح في الإمساك به، ونقشاً عربياً واحداً وقد تآكل جداً، ورسماً بدائياً جداً لجمل. كانت الصخور أيضاً موبوءة بالفئران، التي فشلت في الإمساك بأي واحد منها، بينما كانت السحالي والجرابيع متوافرة، مستمتعة بالشمس الدافئة. كانت الطيور في كثرة بين أشجار وجنبات الوادي، متضمنة طيور اليمام الأخضر التي يسمونها خرود، وصياد ذباب صغير وأخيراً وليس آخراً، الزرزور اللامع الجميل والذي فيه يكون الديك وحده مكسواً بريش كأنه قوس قزح، بينما تكتسي الدجاجة منه ريشاً ذا لون رمادي منقط ومريح.

عبرنا بعد حوالي ميل واحد فيما يلي حجلا، فرعاً ثانياً للوادي، به قرية صغيرة تسمى آل غليظ على الجانب الأيسر، وبعدها واجهتنا تلك البلاد المتموجة، الجرداء، الصخرية نفسها كما سبق. عبرنا – بعد فترة – شعيب لعصان وبه هضبة بالاسم نفسه على بعد نصف ميل داخل بطن الوادي، وهو رافد من روافد حجلا، وعلى الجانب البعيد منه تقابلنا مع مجموعة من رجال الأمير وهم يستقلون إحدى السيارات، وقد أوفدوا لتقصي أحوالنا وما قد يكون قد حدث لنا، حيث إنهم كانوا يتوقعون وصولنا عصر اليوم السابق. لم تعد -من هنا وما يلي- تخفى عن أعيننا علامات سكنى البشر. أولاً كانت قرية بن نعمان على تل منخفضة متعرجة على جانب الطريق، ثم فيما يلي شعيب الشرف وشعيب جوحان كانت قرية آل لفلت، أيضاً بجوار الطريق، ثم القرية الكبرى غير المنتظمة الدارة وبها مبانٍ عديدة شبيهة بالقلاع على هضباتها المبعثرة. كنا قد ارتفعنا عند هذه النقطة إلى (٧٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، كان الإحساس بهواء الجبال وهو يهب علينا عند الحاجز العظيم الذي يعترض طريقنا، منعشًا في صباح هذا اليوم

الصيفي الرابع من يونيو. انحدر الطريق عند المرتفع التالي للأرض بشدة إلى تجويف منخفض حيث توجد قرية أكبر من القرى التي عبرناها وكالعادة، سألت دليلي عن اسمها. فبدا عليه الحيرة فيما يخص أسماء القرى في هذه البلاد غير المألوفة له، وبدا عليه التردد حيناً، ولكن إجابته أدهشتني. إذ قال إنها لا بد أن تكون أبها.

أبها! اسم عظيم في التاريخ العربي، ولكنها أكبر قليلاً من قرية بعد كل هذا كانت في حقيقة الأمر، عبارة عن مجموعة من القرى امتدت إلى بعضها البعض على جوانب ثلاثة من أرض مربعة مجوفة لتكوِّن عاصمة المنطقة[١]. كان الجانب الرابع من المربع محفوفاً بالركائز الضخمة للمنزل الحكومي، قلعة قديمة لهذه البلاد المضطربة والذي كان يجدد مراراً ويطوّر بواسطة الحكام المتتابعين[٢]. شمخ برجه الأبيض، لامعاً في ضوء الشمس، متوعداً بالسلطة وقوتها لكل من له عين ليرى ويحترم القانون. غير أنه وخلال ثلاثة عقود، فقد شاهد أولئك الذين رأوه علم البرج الرسمي وهو يتغيَّر ثلاث مرات. انتهت فترة الحكم التركي الصعبة في هذه البلاد الهمجية مع الحرب العظمى، ليحل محله الحكم الإدريسي والذي تم إخماده عام ١٩٢٠م بواسطة الحكم السعودي العظيم، والذي نجح وحده في صناعة

(١) للمزيد من التفصيلات عن موقع وتاريخ وحضارة مدينة أبها، انظر: غيثان بن جريس. **أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية)** (الرياض: مطابع الفرزدق التجارية) ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)، ص ١٤ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) يطلق على هذه القلعة قصر شدا، وكان في وسط مدينة أبها قصر قديم بني في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي يسمى (شدا)، ثم هدم واستبدل بقصر آخر بناه الشيخ/ عبدالوهاب أبو ملحة (رئيس ماليات الجنوب) ليكون سكناً له، ثم صار مقراً للأمير والإمارة، وأطلق عليه اسم (شدا) أيضاً، وهو القلعة التي يعنيها فيلبي. (ابن جريس).

السلام حيث كان العنف قد نشر جناحيه دون توقف ولقرون عديدة. ينظر العديد مع ذلك، بحنين وشوق للأيام الجميلة السابقة للأتراك، حين كانت يد كل رجل تمتد ضد جاره وكل الرجال كانوا متحدين ضد الحكومة[١]. لم تكن أبها -على ارتفاع (٧٠٠٠) قدم فوق مستوى البحر عند سفوح جبالها الجبارة- أبداً مركزاً لتلك الفوضى البدائية.

يجري واديا جوحان والدارة، وقد عبرناهما، إلى أسفل ناحية الشمال ليصبا في وادي أبها أسفل البلدة التي تقع على الجانب الأيمن للأخير، وتمتد جزئياً ناحية الوادي. كانت قيادة السيارات سهلة بعد مرورنا بالقرية الأولى (الخشع) من قرى العاصمة لنجد أنفسنا أمام الباب الرئيس لمنزل الحكومة، حيث قابلنا الحاكم بالإنابة بنفسه شخصياً، خالد السديري، وقد كان ينوب في هذا الوقت عن أخيه الأكبر تركي الذي كان غائباً في رحلة طويلة إلى نجد والحجاز[٢]. ظلت عائلة السديري -التي يقع موطنها الأصلي في الغاط في منطقة سدير في شمال طويق، ولعدة أجيال متصلة عن طريق الزواج مع البيت الملكي لابن سعود- يتمتع أعضاؤه بمكانة تنقص قليلاً عن أمراء الأسرة المالكة. احتلت أجنحة خالد الحيوية قسماً من القلعة على جانبها الجنوبي ولم تكن مرفهة بأي حال. أُرشدنا إلى صعود درج مظلم متعرج إلى غرفة ليست بأقل ظلاماً ذات أبعاد صغيرة، ويستخدمها مكتباً لأداء المعاملات الرسمية. كانت جدرانها مزخرفة على نمط أبها، ذات خطوط هندسية بالقلم والحبر، وتصميمات زهرية، وكانت أرضية الغرفة مغطاة بالسجاد. في

(١) وهذا مما يدل على فقدان الأمن، وعند مجيء حكومة الملك عبدالعزيز آل سعود، صار الأمن يجد طريقه في البلاد حتى أصبح جميع الناس آمنين مطمئنين في أوطانهم. (ابن جريس).

(٢) تركي بن أحمد السديري تولى إمارة منطقة عسير من عام (١٣٥٣ ــ ١٣٧١هـ)، انظر كتاب: ــ **أبها حاضرة عسير**، لابن جريس، ص٦٠ (ابن جريس).

إحدى الزوايا توجد مكتبة عادية وعليها أوراق مبعثرة من فوقها وعلى أرفف متدلية من الجدار. يوجد جو من القذارة والفوضى في هذه الغرفة، لا تتناسب مع مكانة ووقار مضيفنا الشاب، الذي لم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين.

لم تترك لنا مودته وكرمه، على أي حال، شيئاً كنا نتمناه، وبعد الحديث مع دورات أكواب الشاي والقهوة العادية، أعلن لنا عن الغداء، وتحركنا جميعاً إلى الطابق السفلي عبر الساحة المركزية إلى درج من مجموعة متواصلة من الدرجات قادتنا إلى غرفة الطعام -وهي غرفة متوسطة الحجم وبسيطة جداً. وضع أمامنا الطعام الثري في أصحن كبيرة تستقر على مقاعد معدنية كان المضيفان على رأس الطاولة- بالطبع كان الطعام كله على الأرض- أكبر الأطباق وأطولها كانت مخصصة للأمير وضيوفه الخاصين. وجلس إلى جانب فرقتي كل تابعي الأمير والعديد من موظفي الحكومة إلى جانب زوار خاصين، كانوا في القلعة بصدد بعض الأعمال، جلسنا للطعام الذي اشتمل في الأساس على أرز مطبوخ ولحم ضأن إلى جانب المشهيات الأخرى (إدام) في صحون منفصلة أو أطباق، وبالطبع الخبز، والخبز المحلي من أجود دقيق القمح المعد في قوالب متطاولة يصل سمكها إلى نصف بوصة.

من سمات الكرم العربي أن الضيف المسافر المرهق يجب الترفيه عنه منذ لحظة وصوله إلى حين إطعامه - وتكون الفترة أحياناً طويلة. كانت الفترة هذه المرة قصيرة نسبياً وكنا غير مقيدين بعد تناول الغداء لنذهب إلى المنزل في حي مناظر الذي خصص لسكنانا أثناء إقامتنا في أبها. لم يكن قصراً غير أنه كان منزلاً مريحاً بما فيه الكفاية، يملكه أناس بسطاء عاديون ظلوا - رجل وزوجته- في الطابق الأرضي تاركين الطابقين العلويين لنا. قمت بحجز الشقة العليا، كاملة بحجمها

ووسائل الراحة الأخرى- لي ولعفشي الضخم، بينما شغل رفاقي الطابق السفلي، يقضي سعد، حينما لا أحتاج له، كل الوقت مع شقيقته التي كانت تعيش معه في سكني في الطائف في صيف عام ١٩٣٤م، قد خطبت الآن وتزوجت أحد الخدّام التابعين للمجلس الملكي وقد تم نقل الزوج أخيراً إلى أبها مع موكب الأمير تركي السديري وكان قد أحضر زوجته معه.

لقد دعيت إلى وجبة -حسب التقاليد- في إحدى المناسبات أثناء إقامتنا في أبها، واعترافاً بالكرم الذي كان في أسلوب تقليدي، فقد أرسلت إلى مضيفتي التي لم أرها جنيها إنجليزياً ذهبياً.

كان انعزالها، بالمناسبة، مفروضاً عليها بعادتها النجدية وليس بالمستويات السائدة في أبها، حيث تتحرك النساء، كل النساء عدا الطبقات العليا، بحرية، تقريباً، وغير محجبات يرتدين السمق الجذاب مع حزام. كانت المرأة العاملة في منزلنا تحضر مراراً إلى شقتي لتنظيفها وترتيبها، وكانت في مثل هذه المناسبات، تتخلف لتجاذبني الحديث في أمور عالمها الصغير، وتسألني عن هدف علم الطيور وعن مطاردتي للحشرات وعن ملاحظاتي للنجوم وهكذا. كان إدماني لهذه الأشياء حديثاً شائعاً محلياً، وأكسبني العديد من الزوار، بعضهم يتمنى -بلا شك- أن أكون قد أحضرت معي الدواء الشافي لكل الأمراض، والتي كان سببها الرئيس هو فقرهم المدقع.

يعزى ذلك لحقيقة أن المغادرة النهائية للأتراك عام ١٩١٨م لحقتها ثلاث سنوات من حروب محلية، نتج عنها الدمار المتعمد لبساتين الفاكهة في أبها وما جاورها من قرى وأيضاً للمباني في العاصمة، بدأت أسمع القصة الكاملة للتاريخ

الحديث لأبها مساء يوم وصولي، حينما صحبت الأمير في إحدى نزهاته العادية إلى مشيع إحدى القرى الصغيرة للدارة، حيث اجتمعنا على منصة في الهواء الطلق مواجهة لغروب الشمس، ذلك بعد أن فحصت الممشى الذي يربط الحديقة الفقيرة مع المنزل، الذي يسمى بيت المصري، ربما كان هذا أحد موظفي النظام التركي من الذين كانوا يرغبون في الحياة خارج البلدة. وجهنا السيارة، حين عودتنا إلى أبها، ناحية ساحة كبيرة مكشوفة، وراء القلعة، مزينة ببعض الأشجار ذات الحجم الجيد ومعدة لأن تشغلها الحامية العسكرية المحلية الوهابية الذين يعيشون معظم الوقت تحت الخيام. استدعى الأمير أحد الأعيان المحليين، واسمه أحمد بن هليل، ليقدمني له، وجلسنا إلى وقت متأخر من المساء نتحادث حول أبها ومغامراتها. وجدت أحمد سريع الاستجابة للحديث. جدير بالاحترام، حقيقة، وواسع المعرفة، مع خبرة شخصية بالصعود والنزول لنمط الحياة في هذا الجزء من العالم. ولد في أبها، كما ولد فيها والده، غير أن أسرته ليست من مواطني المكان، لأن جده، من أصل عنزي فقد جاء من دمشق ليستقر هنا عند منتصف القرن الماضي في تلك الأيام التي كانت فيه هذه المرتفعات جزءاً من الدولة السعودية الثانية للعظيم فيصل بن سعود[١].

كان الملك هو الذي منح أسرة آل عائض المحلية الرئاسة بالوراثة على قبائل مرتفعات عسير، وكانوا هم حكام البلاد حينما أبدى الأتراك اهتمامهم وللمرة الثانية بساحل البحر الأحمر للجزيرة العربية وأراضيها الداخلية، وذلك بعد وفاة فيصل وافتتاح قناة السويس بعد أربع سنوات لاحقة (١٨٦٩م). كان احتلالهم للمرتفعات قد تم عام ١٨٧٢م كجزء من المخطط الاستعماري الكبير للوزير

(١) المقصود هو الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله. (ابن جريس).

الأعظم، مدحت باشا. ظل الأتراك منذ ذلك الوقت وحتى نهاية الحرب العظمى في احتلالهم مع حامية عسكرية، مكونة غالباً من (١٥) كتيبة، غير أنهم على الرغم من بنائهم لقلاع جيدة الموقع وأبراج المراقبة، في شكل حزام حلقي حول أبها[١]، فإنهم لم يستمتعوا أبداً بسلام حقيقي أو أمان.

كانت القبائل دائماً متمردة وقامت بثورة كبيرة عام ١٩١١م حاصرت فيها قوات الحكومة في أبها لعدة شهور وجعلت من الضرورة إرسال حملة نجدة من الحجاز تحت القيادة الاسمية لشريف مكة -قدّر لنفسه أن يثور ضد القوة المتسلطة وليدخل التاريخ لفترة وجيزة تحت اسم الملك حسين ملك الحجاز-، الذي كان يرافقه في هذه المغامرة ابناه الشابان، عبدالله وفيصل، مستمتعين بتجربتهم الأولى للحرب.

كان الرئيس الإدريسي، محمد، من أبناء صبيا هو الذي وضع نفسه على رأس الثورة القبلية، وأنه هو الذي دخل إلى الجبال عند دروب غير معروفة متحاشياً درب الأتراك عن طريق شعار إلى السودة ومعه قواته وحشودها تندفع أسفل الطريق تجاه أبها، وانتصارهم على قوة تركية مهاجمة عند غاوة وإجبارهم الأتراك للحصول على الحماية من خلف تحصيناتهم. تمكن جيش الشريف من

---

(١) لمزيد من التوضيحات عن القلاع والتحصينات التي عملها الأتراك في أبها وما حولها من بلاد عسير، انظر: عبدالمنعم عبدالعزيز رسلان. (بعض استحكامات منطقة عسير الحربية في العهد العثماني). **مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي بجامعة أم القرى**. س (٥) عدد (٥) (١٤٢٠هـ / ١٩٨٢م) ص ٣٧٩ ـ ٤٢٨ . وللمزيد أيضاً: انظر دراسة علمية جيدة تحت عنوان:ـ **تحصينات أبها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (دراسة حضارية)**. رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة، إعداد/ . محفوظ بن سعيد بن مسفر الزهراني (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والحضارة، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م)، ص ٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

أتراك وعرب -بعد مواجهته للعديد من المصاعب في الطريق- أن يشتت المتمردين وأن يخلص الحامية التركية، ولكن في هذه الأثناء، كانت قبائل قوز بالعير في جبال تهامة قد ثارت من ورائهم، وأن حملة النجدة بعد فشلها عادت إلى مكة عن طريق خميس مشيط وبيشة[١].

ظل شيوخ آل عايض، كما يبدو، مخلصين للأتراك خلال هذا الحدث، ولربما قاموا بدور مهم في المعاهدة المشكوك فيها للقبائل التي تضمن نجدة أبها. كما ظلوا مخلصين للولاء نفسه أثناء الحرب العظمى، وتركتهم المغادرة النهائية للأتراك وهم ذوو سيطرة عليا، برغم أنهم الآن يواجهون تحدي الإدريسي، والذي اعتُرف له بسلطتة على عسير أثناء الحرب، بواسطة البريطانيين.

استمتع الإدريسي بالتعاون النشط لقبائل رفيدة (قحطان) في الجبال إلى جنوب شرق أبها وقبائل رجال ألمع في جبال تهامة ناحية الجنوب الغربي[٢]. وحققت قواته القوية والجيدة العدة والعتاد نسبياً، تقدماً معقولاً أول الأمر في نقل سلاح مدفعيتهم تجاه أبها نفسها. وطلب شقيقا عائض، حسن ومحمد، بيأس، من ابن سعود أن يتعاون معهما لطرد الغزاة من بلادهم، وحضر عبدالعزيز بن

---

(١) وللاطلاع عن حصار الإدريسي لمدينة أبها بهدف السيطرة عليها، ثم إرسال المدد من مكة المكرمة لإنقاذ أبها من السقوط في يد الإدريسي، انظر: **مذكرات سليمان شفيق باشا**، ص ٣٦ ــ ٨٧ ، حنان سليمان الملكاوي. **العلاقات بين أمراء الأدارسه في عسير وأشراف مكة (١٩٠٨ / ١٩٢٥م)**. منشورات لجنة تاريخ الأردن، سلسلة البحوث والدراسات المتخصصة رقم (١٢) (عمان، ١٤١٧ / ١٩٩٧م)، ص ٣٨ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن قبائل منطقة عسير في الأجزاء الجبلية والتهامية، انظر: هاشم بن سعيد النعمي. **تاريخ عسير في الماضي والحاضر**. (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م) ص ٦٨ ــ ١٠٥ . (ابن جريس).

مساعـد، من أبناء عمومة الملك، ومعـه قوة سعودية عام ١٩١٩م. وقـد تغير المد وهزمت قوات الإدريسي آخر الأمر وطردوا إلى الخلف، إلى السهول[١].

فكر أشقاء عايض الآن في نقل الحـرب إلى أرض العدو وتحدثوا عن احتلال صبـيا، وأبي عـريش وغيـرهما من مـراكز الإدريسي في سـهل تهامـة، وهنا لم يعتمدوا على ضيفهم. لقد جاء السعوديون، حـقيقة لمساعدتهم، استجابة لرجائهم المساعدة، غـير أنهم جاؤوا أيضاً ليبقـوا. كان جيش أبها جاهزاً لحملة تـهامة عام ١٩٢٠م، حينما تلقى حسن بن عايض الأخبار بتحـرك جيش سعودي كبير بقيادة الأمير فيصل[٢]، الذي كان عمره آنذاك (١٥) سنة فقط، قـادماً مؤخراً من رحلته إلى أوروبا، والذي جـاء مـعـه المهـيب خـالد بن لؤي من أبناء الخـرمـة. وصل السعوديون إلى خميس مشيط، حيث قوبلوا بحرارة. أدار حسن جيشه وتحرك إلى الأمام بثقة لمقـابلة الأصدقاء القدماء الذين أصبحوا الآن أعـداء. دمرت قوات أبها في حجلا، وعبر البلاد وتقدموا فيها حـتى تم لهم فتحها . انتشر السعوديون فوق كل البـلاد ووصلوا حتى مـحايـل على الطريق الرئيس النازل إلى القنفـذة. هكذا لقنت القبائل المتمردة لعسير درساً قاسياً في سبيل السلام.

تم إخضاع حسن ومحـمد، شقيقي عائض، ومعهمـا أحمد بن هليل نفسه، وقد ردوا جـميـعاً على كـعوبهم، وروى لـنا ابن هليل قصـة نقلهم إلى الرياض

---

(١) الصحيح هو أن حملة الأمير عبد العزيز بن مساعد جاءت إلي المنطقة عام ١٣٣٨هـ، لتوحيدها ولرفض حسن بن عـائض الوسائل السلميـة، ونتج عن الحملة هزيمة ابن عائض في مـعركة حـجلا، وتمكن ابن مساعد من دخول أبها، واستسلم ابن عائض وابن عمه وأعلنا مبايعتهما للدولة. انظر: العثيمين، **تاريخ المملكة**، حـ٢، ص١٧٧ .(ابن جريس).

(٢) الصحيح هو عام (١٣٤٠هـ / ١٩٢١م) عندمـا وصل الأمير فيصل بحملته إلى عسـير لإخضاع تمرد آل عائض وإعـادة السلطة إلى المنطقة،للمـزيد انظر: العثـيمين. **تاريخ المملكة** ، حـ٢، ص ١٧٨ . (ابن جريس).

ليكونوا «ضيوفاً» على الملك، وليتلقوا دروساً، بالمناسبة في التاريخ السابق لبلادهم كجزء لا ينفصل عن الدولة السعودية السابقة حتى دخول الأتراك لإفساد رؤسائها بالإعانات المالية والأوسمة. فمكثوا في الرياض مدة سبعة أشهر، بعدها سمح لهم بالعودة إلى أبهـا كمواطنين عاديين، بعد وعدهم الجاد بالسلوك الطيب في المستقبل، برفقة قافلة أول حاكم مدني نظامي من أبناء الشويش[1] من الرياض، وأحد تابعي الملك.

لقد أمر الحاكم الجديد أن يلطف العنف بالرحمة وكانت احتكاكات شقيقي عائض وتجاربهما الجديدة بالرفق بعد الدروس القاسية في الماضي القريب، ذات أثر سيء عليهما، علماً بأن صديقي أحمد بن هليل، انسحب عن التمرد المتوقع، وذهب بعيداً إلى حين أن تنتهي العاصفة. لم تكن نهايتها بعيدة. تم القضاء على التحرك الأول فوراً وبقسوة أكبر.

وتم إبعاد كل أعضاء أسرة آل عائض الرئيسيين إلى الرياض أو إلى جهات أخرى، ومنذ ذلك الوقت لم يسمح لهم بالعودة مطلقاً. رأى أحمد نفسه أنه من الحكمة أن يبقى بعيداً إلى حين، وفكر في أن يجد وظيفة في الخدمة المدنية السعودية. شغل عدداً من الوظائف لعدد من السنوات في مصلحة المالية في القنفذة ومواقع أخرى في تهامة، وقام بإمداد الملح الصخري في عام ١٩٢٥م أثناء حصارجدة، للقوات المحاصرة، الملح الذي تم الحصول عليه من بعض الأودية

(١) الاسم الصحيح هو: شويش بن ضويحي، تولى إمارة عسير حوالي (١١) شهراً عام (١٣٣٨ ــ ١٣٣٩هـ). انظر: ابن جريس. **أبها حاضرة عسير**، ص ٦٠ . وعن أوضاع المؤسسات الإدارية في منطقة عسير خلال عصر الملك عبدالعزيز، انظر أيضاً: **كتاب عسير في عصر الملك عبدالعزيز**، لابن جريس، ص ٢٧ ــ ٨٧ . (ابن جريس).

المنسابة من الجبال إلى السهل الغربي، ويوجد الملح أيضاً في أبها. تم إنشاء وصاية وسعودية عام ١٩٢٦م على إقليم الإدريسي، والتي ألحقت عام ١٩٣٠م بالنظام الإداري العام لحكومة ابن سعود، وقد تمت دعوة الإدريسي نفسه وأسرته إلى الإقامة في مكة، بعيداً عن كل الإغراءات غير المناسبة.

انتهت عملية إخضاع مرتفعات ومنخفضات عسير الآن، وأمكن لأحمد أن يعود إلى حياته الخاصة والعودة إلى أبها، حيث عاش منذ ذلك، مواطناً محترماً ومخلصاً، سعيداً بما فيه الكفاية، بلا مسؤوليات وظيفية تثقل كاهله. فبنى لنفسه منزلاً جديداً في حي القرى وأحاط المنزل بحديقة واسعة، وكان يمتع نفسه بالترفيه والترحيب بالزوار بكرم شديد، ويتحدث عن تجارب حياة مملوءة بالأحداث. كانت حديقته تروى بواسطة نهر جارٍ طوال السنة من نبع مجاور قام بتوصيله بماسورة معدنية إلى بئر في الحديقة لتدعيم الإمدادات المائية. كان يبدو فخوراً بمقدرته على الزراعة وكان مولعاً بالأزهار التي كانت في هذا الوقت تغطي مساحات كبيرة وهي أزهار من الزينا، وجينداس، والزعتر المزهر، وبعض شجيرات الورد إلى جانب المتسلقات مثل اللوبيا القرمزية وأخيراً وليس آخراً، شجرة توت كبيرة نجت من محرقة الوهابين وأنتجت ثمارها بالتطعيم -كانت عقدة التطعيم واضحة في منتصف الساق- فأعطت ثماراً قرمزية بدلاً من الثمار البيضاء. كانت لديه أشجار فاكهة أخرى، ولكنها كانت لا تزال في مرحلة التجربة. كما عرض عليَّ في اسطبل في إحدى زوايا الحديقة، فرساً أبيض جميلاً أحضره -كما قال- من بلاد تثليث، غير أنه يبدو لي من الطراز النجدي الأصيل. وكان قد اشتراه حديثاً، لابنه، سيف -إنسان عينه- وهو صبي في السادسة عشرة من عمره، وفي كل سماته شاب جذاب وذكي.

كانت العادة هنا، كما في خميس مشيط، أن يحتفى بالضيف فور وصوله بإشعال مجمرة النار وبها البخور لتعطير الحجرة. أول تجاربي لذلك، كانت في منزل أحمد، وقد أشرفت امرأة بوضع المجمرة مع كلمة تحية «أرحبو» (مرحباً بكم)[١]. يشرح أحمد لي ذلك، ربما استجابة لدهشتي التي لم أعبر عنها بالكلمات، بأن هذه هي العادة في هذه البلاد ذلك أن تقوم النساء بخدمة الضيوف وتحيتهم. إنهن بكل تأكيد، أكثر حرية من نساء نجد، حيث لا يمكن أن يحدث مثل هذا. كان بعض النسوة، وتقريباً كل النسوة اللائي يقمن برعي الأغنام على جوانب التلال، أو يعملن في الحقول، كن يرتدين قبعة عريضة من القش[٢]. وترتدي كل النسوة هذه القبعات في المحافظات أعلى الجبال، وكذلك معظم الرجال حينما يعملون تحت الشمس. أدركوا أن الشمس أكثر حرارة في هذه الأجزاء منها في الحجاز، إلى الشمال، غير أن درجة الحرارة في الظل في أبها كانت تبدو، بصفة عامة، منخفضة جداً. كانت الدرجة القصوى هذه الأيام (٧٥) درجة في المتوسط، وكانت السفلى حوالي أقل بعشر درجات بصفة عامة، غير أنها في إحدى الليالي تدنت إلى (٥٤) درجة.

لعل قلعة أبها ضاربة في القدم، وبرغم أنها قد قاست تقلبات مختلفة من حصار ومن تدمير جزئي عبر العصور، فإن الفحص المتأني قد يكشف عن

---

(١) أرحبو، كلمة اشتهرت حتى اليوم عند سكان منطقة عسير، وأحياناً يقولون: ــ «مرحباً ألف»، وهناك عبارات مشابهه في مناطق جازان، ونجران، والباحة، والطائف، مع اختلاف بسيط في حروف الكلمات، فهناك من يقول: «مرحباً ألوف» أي بالآلاف، أو «مرحباً تراحيب السيل» أي المطر، وغيرها من العبارات واللهجات المتنوعة. والحقيقة أن اللهجات في جنوبي البلاد السعودية بحاجة إلى دراسات علمية أكاديمية جادة حبذا لو تصدى لها بعض الباحثين. (ابن جريس).

(٢) وتسمى هذه القبعة عند أهل البلاد بـ (الطفشة) وأحياناً بـ (المظلة) وهي مصنوعة من الخوص. (ابن جريس).

إسهامات فترات عديدة مختلفة. يعود تاريخ الجزء الجنوبي مثلاً -للمبنى الذي يحتله الأمير خالد- إلى زمن بعيد، وذلك لأن مثل هذه الغرف المظلمة، لا يمكن أن تبنى في هذه الأيام المتطورة. لم يستثن السعوديون، حين هجومهم على أبها، القلعة، والبناء القائم اليوم والمثير للإعجاب، إلى جانب أنه احتوى على كل التراكيب القديمة التي قاومت، قد تم بناؤه خلال الخمسة عشر عاماً التي سبقت زيارتي، بينما لا يزيد عمر البرج العظيم الأبيض عن (٣) أو (٤) سنوات. تقع الحديقة الحكومية خلف القلعة عند الزاوية الجنوبية الغربية، محتوية على بعض الأشجار الكبيرة ولا شيء آخر إلا القليل.

لقد ذكرت سابقاً، قرية الخشع الصغيرة التي تقع على الجانب الشرقي للقلعة. يتفرع الطريق، قبل الوصول إلى هذه القرية، تجاه اليسار وتجاه اليمين ومن حول المنازل والقلعة والحديقة ليتحد فرعاه مرة أخرى على الجانب الغربي للحديقة ثم يستمر تجاه الجنوب الغربي بين المعسكر الحربي وقرية القرى (إلى الغرب من الحديقة) ثم أعلى الوادي - وادي أبها.

على الجانب الآخر من الوادي وإلى الغرب من قرا تقع القرية الصغيرة الطفيفه المفتاحة ومزارع فاكهتها عند المنحنى الحاد للنهر. تقع قرية القابل على الجانب نفسه للوادي (الجانب الأيسر) حيث يلتف الوادي من الشمال إلى الشمال الشرقي، والتي تتصل مع الجانب الآخر عن طريق جسر بناه الأتراك ليحمل الطريق الرئيس من أبها إلى كل من السودة وشعار. يمر هذا الطريق على الجانب الغربي للقرية الكبيرة بن نعمان وعلى جانبها الآخر مبانٍ مبعثرة ليست بذات أهمية. يلف الطريق حول أرض الاستعراض عند جانبها الجنوبي بين القرى وحديقة الحكومة، والطرف الجنوبي لصف من المتاجر مكوناً جانباً واحداً من محل

السوق، ليصل إلى القلعة، والتي في مقابلها -وعبر محل السوق- توجد أكبر قرى أبها واسمها مناظر وعلى جانبها الشرقي قرية صغيرة يفصلها عنها مساحة مكشوفة ضيقة. تكتمل مجموعة أبها -أخيراً- بقرية النصب الصغيرة الواقعة إلى الشمال من بن نعمان على الجانب الأيمن للوادي حيث ينحني الوادي مرة أخرى ليكون مجراه الشمالي الشرقي إلى الشمال[١].

كانت المباني من اللبن وذات طابقين في معظمها، غير أن بعضها كان من طوابق ثلاثة، وأساسها كلها حجري ومظهرها بسيط إلا من تلك الصفوف من ألواح الصخر الأردوازي التي تبرز من الجدران الطينية لتحمل مياه الأمطار بعيداً عن الجدار، أو ربما لتمنعها من أن تسيل فتصل إلى الأساس. كان أدنى هذه الشرائح موضوعاً عند منتصف ارتفاع البناء وبعد ذلك، تتتابع على مسافات من (١٨) بوصة إلى القمة. يبرز شكل الهيكل الصيني للبناء بوضوح خاصة حينما يبرز تجمع من منازل، مكوناً قرية وتبرز هذه الشرائح إلى الخارج في اتجاه المشاهد، إلى جانب أن المنازل نفسها قد شيدت فوق هضبات والتي ترفع المباني الداخلية إلى مستوى أعلى من تلك التي على الحافة. لقد انطبع في ذهني دائماً، هناك في خميس مشيط وهنا في أبها، ومن كل الجهات، أنه ومنذ قيام الحكم السعودي، فإن الازدهار، مع السلام، كان يعود في بطء إلى كل هذه البلاد، غير أن انطباعي العام عن الناس في هذا الوقت، أنهم كانوا فقراء لدرجة البؤس، وتقف كل مزارعهم مهجورة، وفقط بقيت مزارع الذرة الشامي تمدهم بما يفي بالبقاء في نطاق

(١) وعن أحياء وقرى وضواحي مدينة أبها خلال القرون الماضية انظر كتاب: ــ **أبها حاضرة عسير**، لابن جريس، ص ١٧ ــ ٤٨ . (ابن جريس).

متواضع. كان للمكان -رغم كل ذلك- كبرياء خاص به -شخصية حقيقية- وقد يتمادى المرء فيقول انفرادية مؤكدة. لم أر مطلقاً مكاناً آخر مثل أبها[١].

يعد وجود أحد الضيوف في أوساطهم، أحد الأعذار في المجتمعات العربية لإعداد سلسلة من الاحتفالات، تكون عادة على شرف الحاكم المحلي - ممثل الملك. لم تكن أبها شاذة عن القاعدة، غير أنني في يوم وصولي إلى هنا، هاجمتني الحمى، التي يبدو أنها ذات دورات كل (٤٨) ساعة، وظللت طريح الفراش لم أر أحداً ولم أقم بعمل أي شيء.

خرج الأمير ومعه عبدالوهاب في اليوم التالي يصحبهما الفوج الكبير المعتاد من موظفين وأعيان وشيوخ القبائل، لقضاء اليوم مع سعيد بن مشيط في ذهبان. لقد قدمت لي الدعوة ولكنني اعتذرت لأمضي اليوم بهدوء لكي أتعافى من الحمى ومن متاعب السفر وأيضاً لحزم عينات التاريخ الطبيعي، استعداداً لإرسالها إذا توافرت أي سيارة متجهة إلى مكة أو جدة، لنقلها آخر المطاف إلى المتحف البريطاني. يمكن لليوم الجميل في هذه الأيام أن يمتلئ بالسحب سريعاً بعد منتصف النهار، وتظل السماء مملوءة بالسحب، بصفة عامة، حتى الغروب، حينها يصفو الجو ويكشف عن سماء صافية مرصعة بضوء النجوم.

---

(١) لم يكن فيلبي هو الوحيد الذي أُعجب بمدينة أبها، وإنما عُشاقها والمعجبون بها كثير، ناهيك عن أنها عروس الجنوب، فهي المصيف الأول في المنطقة الجنوبية. ومن يشاهد المصطافين الذي يفدون إليها كل صيف يجدهم يُعدون بالآلاف، ولكن لا زالت تحتاج إلى كثير من التنمية والتطوير كي تصبح مدينة اصطياف عالمية. للمزيد انظر: غثيان بن جريس. (أبها مدينة المستقبل، مقترحات ووجهات نظر) **بحث منشور في مجلة بيادر الصادرة عن نادي أبها الأدبي**، عدد (٣٥) (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) ص ١٣ ــ ٣٤، كما أعيد نشره في كتاب: ــ **بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر**، ص ١٥ ــ ٣٥ (ابن جريس).

استقبلتنا قطرات قليلة من المطر في اليوم الرابع وكان هنالك مطر غزير في اليوم السابق لقدومي. كان خط العرض هنا (١٨,٥) درجة شمال، ولعلنا كنا داخل الحدود الشمالية للرياح الموسمية، كان معي جهاز اللاسلكي الخاص بي، الذي استمع عن طريقه للأخبار وإشارات الوقت -عادة من الإذاعة البريطانية أو القدس- وذلك لأجل تحديد أوقات ملاحظاتي للنجوم، غير أنه يوجد في أبها (في القلعة) جهاز لاسلكي للإرسال والاستقبال لغرض أعمال التلغراف ومعظمها على حساب الحكومة. كان الجهاز من طراز ماركوني القديم، وهو أول جهاز اشترته الحكومة السعودية للاستعمال في القنفذة عام ١٩٢٦م، وقد أرسل حديثاً إلى أبها حيث صنعوا له برج أسلاك عالياً ليحمل هوائيه. ما يهم هنا، أنه لا يزال يعمل.

لقد تم منح أبها، - على عكس بيشة، دعك عن رنية والخرمة- أسطولاً صغيراً من سيارات رسمية نزولاً لمكانتها المحلية والمرتبة الاجتماعية لحاكمها.

كان أكثر الأمور أهمية ذلك الجهد الذي بذلته الحكومة لتأمين خدمات طبية متواضعة. يوجد في أبها «مستشفى» يرأسه طبيب هندي يدعى. دكتور عبدالحميد[1]. لم يكن المبنى حقيقة مستشفى بل أكثر منه صيدلية من أكثر الأنواع بدائية، عارضة صورة حزينة للحضارة في غرفة منفردة، صغيرة، في الطابق الأرضي مقسمة إلى أجزاء بواسطة الستائر، خالية من الأثاث إلاَّ من علب القاز عبوة أربعة جوالين فارغة وضعت إلى جوار بعضها البعض لتكوِّن طاولة من نوع ما، وعلب مماثلة رتبت الواحدة فوق الأخرى في صفوف لتكون أرفقاً توضع فيها

(١) يذكر أحد الرواة:ـ أنه كان يوجد في أبها في الخمسينيات بعض الأطباء الهنود، ثم أصبح الأطباء السوريون هم الأكثر خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الهجري الماضي. لمزيد من التفاصيل، انظر: كتاب: ـ **أبها حاضرة عسير**، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٩ . (ابن جريس).

قارورات الدواء وما شابه ذلك. امتدت مسؤوليات عبدالحميد إلى نجران في الجنوب وإلى تهامة في الغرب. كان رجلاً لطيفاً، صغيراً، مسرفاً في التعبير عن عاطفته وزائد القلق لإرضائه. كان لا يزال في مرتبة أدنى في مهنته والتي كان فخوراً بها وكذلك في مكانته كرجل متعلم. يتحدث الإنجليزية بطلاقة ومعه هنا، في المنفى، زوجة هندية من ترنداد، من دون كل أماكن العالم، وابنة صغيرة وقد بدأت تتكلم الإنجليزية بتلعثم. يبدوا أنه استطاع أن يتعامل بصورة جيدة مع العرب هنا، مسؤولين ومرضى، ولكنه يميل إلى أن يرى نفسه مميزاً عنهم، ولذا فهو يرتدي بنطالاً أبيض وقلنسوة مستديرة مسطحة سوداء[1].

كان اهتمامه الرئيس، إلى جانب عمله وأسرته، في الحياة هو آثار العصور القديمة، وحينما زرته بعد الظهر حينما كان الأمير غائباً في خميس مشيط، كان قد عاد لتوه من حملة آثارية إلى مشيع. التي كنت قد زرتها مع الأمير عصر أول يوم وصلت فيه إلى أبها. كان هنالك لينسخ بعض الرسوم الصخرية، وقد قادني بعد أيام قليلة إلى ذلك الموقع. وقفت منازل قليلة عبر الوادي من عند مشيع وهي منازل من النوع الأفقر وبها حدائق متواضعة في وسط قطعة أرض لزراعة الذرة الصفراء، والتي توجد بالقرب منها سلسلة من جلاميد جرانيتية عظيمة بعضها

(١) وعن وضع الأحوال الصحية أثناء زيارة فيلبي لمنطقة عسير، انظر: غثيان بن جريس. «ملامح التطور الصحي في جنوبي المملكة العربية السعودية خلال القرن الرابع عشر الهجرى (العشرين الميلادي)». **بحث منشور في مجلة بيادر الصادرة عن نادي أبها الأدبي**. عدد (٣٣) جمادي الأولى (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) ص ٥١ ــ ٨٣ . ثم أعيد نشر هذه الدراسة في كتاب. **بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر**. ص ٧٧ ــ ١٠٨ . (ابن جريس).

يحمل نقوشاً لرسوم بدائية تمثل حيوانات. كان من بين هذه الرسوم شكل أسد يبدو وكأنه يطأ وعْلاً بقوة، ورسماً لرجل وقد امتدت ذراعاه، ورسماً لمارية وعدد من الوعول. توجد أيضاً أحجار جرانيتية ضخمة تم تجويفها إما طبيعياً أو بواسطة الإنسان، لتكوِّن حماماً واسعاً أو وعاءً كبيراً، وبجوارها توجد ثلاثة جلاميد، الواحد فوق الآخر، كأنها نصب تذكاري، غير أنه من المستحيل القطع إن كان هذا ضريح من أضرحة ما قبل التاريخ وضعه الإنسان أو كان فلتة طبيعية. كانت نزهتنا مريحة جداً وعدنا بعدها عند حلول الظلام تحت سماء مرصعة بالنجوم، عن طريق مباشر، يعبر الوادي (أبها) عند موقع كان جانباه على ارتفاع (٣٠) إلى (٤٠) قدماً، مع طين ندي سُمكه ١٥ قدماً كأنه كتلة مشكلة ملتصقة في غير تماسك شبيه بحلوى المهلبية. تكون صخور الوادي في مواقع أخرى، كما في قرية النصب صخوراً جرداء. أخبرني عبدالحميد عن مكان آخر بالقرب من أبها يسمى ذو القرنين، والذي لم أستطع زيارته، بأنه يحتوي على نقوش وعلى حوض حجري. وأخبرتُ لاحقاً أنه يقع بالقرب من قرية بن نعمان التي مررنا من عندها في طريقنا إلى خميس مشيط.

قمت بزيارة الأمير في الصباح بعد عودته من خميس مشيط، وكانت غرفته مزدحمة بالزوار الذين أبدوا اهتماماً كبيراً بشخصي وبنشاطاتي وكانوا ودودين. كان من ضمن أولئك الذي حضروا، في زيارتي الأولى، علي بن حسين بن هيف، شيخ رفيدة، الذي كان في العاصمة لأداء بعض الأعمال وكان عليه أن يعود إلى جباله[1] في اليوم نفسه. لقد حاول مرتين مقابلتي عصر ذلك اليوم، مع

(١) يقصد بـ (جباله) أي بلاد رفيدة قحطان التي تقع إلى الجنوب من خميس مشيط بحوالي (٢٠) كم. (ابن جريس).

ذلك، كلاهما للأسف بلا نجاح، ذلك لأنني كنت بالخارج، عصر ذلك اليوم، ولدي اعتقاد أنه يرغب في دعوتي لزيارة بلاده. كنت آسفاً ألاَّ أجد الفرصة للتحدث معه، ذلك لأن جبال رفيدة ستبعدني بعيداً إلى خارج مساري. كان هنالك من الناس من يطلبني من نجران، في تلك الأيام، حيث استطعت مقابلة العديد منهم في وقت لاحق. كان ذلك الشخص هو حمد بن حسين بن نصيب، الشقيق الأصغر لجابر، الشيخ الرئيس لمجموعة المواجد التابعة لمذكر يام. كان القسم الآخر لمذكر، كما قالي لي، هو آل فاطمة وشيخهم جابر أبو ساق. يتكون اتحاد يام من مذكر وشام (جشام)، ويرأس الأخير سلطان بن منيف[1]. كان حمد هنا في طريقه إلى مكة وغادر بالفعل على ظهر شاحنة بعد أيام متجهاً إلى هناك، غير أن الشاحنة كانت تحمل فوق طاقتها (٢١) راكباً وكتلاً من العفش مما دعا حمد وخادميه لترك المحاولة في خميس مشيط والعودة إلى أبها. نظراً لمعرفته باهتمامي بالآثار القديمة. قيل لي إن أمين المستودع بمصلحة المالية له علم أيضاً بهذه الأشياء، غير أن هذا الرجل واسمه لاحق، كان فيما يبدو، غائباً أثناء زيارتي.

نعود من هذا الاستطراد إلى موضوع الاحتفالات، دعيت ذات مرة إلى العشاء عند ابن ضاوي، أحد الموظفين الرئيسيين للقسم المالي المحلي، والذي دعا الأمير لتشريف حفلة الانتقال إلى قصره الجديد بمناسبة الانتهاء من بنائه ليسكنه هو، وكان المنزل على طرف قرية بن نعمان. اجتمعت فرقة كبيرة حول عشاء ممتاز

---

(١) لمزيد من التوضيحات عن قبائل نجران، وعن بلاد نجران بشكل عام، انظر: غيثان بن جريس. **نجران دراسة تاريخية حضارية ق١ ـ ق٤ هـ / ق٧ ـ ق١٠م** (الرياض: العبيكان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م) الجزء الأول، ص ١٨٨ ــ ١٩٦ عاتق بن غيث البلادي. **بين مكة وحضرموت**. (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) ص ١٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

وتحركنا كلنا بعد ذلك إلى منزل عـثمان بن عثمان، ذلك الشـخص نفسه الذي مر بنا في الحنجور في طريقه ليتسلم وظيفـة رسـمية في أبها، لنقضـي هنالك سـاعة أو بعضها نتحدث على أكواب القهوة والشاي.

أديت صلاة الجمعة في الجـامع في قرية مناظر. لم يكن الجامع بالواسع الذي يستوعـب كل السكان البالغين في أبها، وكان على من لـم يستوعبهـم المسجد أن يذهبوا إلى مـساجد في القرى الأخـرى، لقد كان عدد الحـضور حوالي (٥٠٠)، يجلسون في (١٥) صفـاً، كل صف من (٣٠) إلى (٣٥) شخصاً. حـضر موكب الحاكم يسبقه عـبيده في أزيائهم المبهرجة وكلهم مسلحـون بالمسدسات، والأحزمة العريضة ذات الجيـوب التي يوضع فيها الرصاص والسيوف، ويـتبعهم بعض جنود الحامية - كان مشهداً مثيراً أثناء مروره من القلعة عبر مكان السوق، وعبر الشوارع الضيقة التي تقود إلى المسجد. أحتل المحراب منتصف الجدار الخلفي، موجهاً تماماً ناحية الشـمال، بجواره كوة أخـرى إلى يمينه، (متجهين نحـوها) مع سلالم قليلة تقود إلى كرسي يستخـدم منبراً لقراءة الخطب. يرفع المؤذن النداء للصلاة بأسلوب لطيف ومـشجع، وذلك عندمـا يدخل الإمام عن طريق باب في الجـدار الخلفي. كانت الدعـوة المحلية للصلاة والتي تسـمع من كل المساجد عند أوقاتهـا المحددة، تستـحق الإشارة هنا للغناء الواضـح أو التداخل[1] (يعرف بـ إدغـام للحروف في الصيـغة العادية: مثـلاً: لا الله، بدلاً من: لا إله إلاَّ الله، ومحمـد رسول لاه، بدلاً من: محمـد رسول الله - يتبع أعيان القـرية الأمير في أثر موكبـه بعد نهاية الصلاة إلى القلعة للاستقبال العادي ليوم الجمعة.

---

(١) الأذان عند المسلمين لا يسمى (غناء) كما يذكر فيلبي، وإنما يسـمى نداء للصلاة، واستخدام فيلبي لكلمة (غناء) ربما قياسـاً على طقوس المسيحـيين الذين يمارسون الغناء والأصوات الموسيقـية في صلواتهم داخل الكنائس. (ابن جريس).

لقد قيل، ولا أدري إن كان هذا حقيقة أم باطلاً، أن الأمير سعوداً حين كان يستخدم أبها قاعدة أمامية للعمليات ضد اليمن في عام ١٩٣٤م كان عائداً هكذا من المسجد إلى القلعة وكان بالفعل على درج مدخل القلعة حينما انطلقت رصاصة وسقط عبدٌ ضخم ميتاً تحت أقدامه، وكان هذا العبد يتبعه مباشرة.

كانت هناك بلا شك محاولة للاعتداء على حياة الأمير وكان أعوان اليمن في ذلك الوقت متواجدين بلا شك، بغرض شرير، ولكن حسب علمي فإن المجرم لم يعرف مطلقاً.

كان مضيفنا لحفل عشاء في مناسبة أخرى هو مدير مصلحة الدخل الحكومي، محمد البسام، صديق قديم لي، جاء إلى هنا من مكة قبل حوالي ستة أشهر وقد رأيته مراراً خلال الأيام الأخيرة. كان الأمير -بالطبع- حاضراً، وكذلك كل موظفي الحكومة في أبها، بما في ذلك عبدالوهاب، وطلعت أفندي[1] -أيضاً من المصلحة نفسها- وابن ضاوي الذي ذهبنا إلى منزله لتناول القهوة والشاي بعد الوليمة.

كان السعي لإعادة تنظيم إدارتي المالية والدخل للمنطقة في ذلك الوقت هو الشغل الشاغل لكل موظفي الحكومة من الأمير إلى أدنى موقع وظيفي وقد تجمعت لديَّ حقائق عديدة مثيرة للاهتمام أثناء محادثاتي مع هؤلاء الناس، ولربما كان من الأفضل أن أتحدث عنها بأقل قدر ممكن. كانت العملة الرسمية في هذه الأنحاء هي دولار ماريا تريزا -ريال أو ريال فرنسي- والذي كان يقسم من أبها

(١) طلعت أفندي، أول من تولى إدارة الشرطة في أبها، ويسمى:ـ طلعت وفاء مكي، من أهل مكة المكرمة، كان له شأن وشخصية قوية، انظر كتاب: ـ **أبها حاضرة عسير**، ص ٤٤٧ . (ابن جريس).

وإلى الجنوب متضمنة خميس مشيط من (٦٠) إلى ٧٠ زلط -مفرد زلطة، قارن مع زولطى البولندي-، والتي كانت من فئات واحد زلطة ونصف زلطة، عملة نحاسية صغيرة أصلها اليمن حيث توجد فئات أخرى تستخدم كما سنرى في نجران. لا تتداول هذه العملات الصغيرة في أي مكان في هذه الأنحاء، مثلاً في ظهران الجنوب يستبدل ما تبقى من الريال بحبوب البن أو الذرة بأسعارها السائدة. بصفة عامة، فإن الريال والزلطة عملتان يستعملان في الأسواق المحلية[١].

يوجد سوق أيام السبت ويسمى سوق السبت في الطريق إلى شعار[٢]، إلى جانب سوق الخميس بخميس مشيط وسوق الجمعة (أعتقد) في أبها، وقد زرت سوق شعار خلال هذه الفترة -ويعرف بصفة عامة بسوق بني رزام التابعين لبني مالك في عسير-، وبالطبع كان هنالك سوق الأحد لرفيدة. كانت الموازين السائدة في هذه الأنحاء هي الصاع والعكة يعادل الأخير زنة (٤٥) ريالاً أو (٤٠٠) درهم والتي يعادل (٣١٢) منها كيلوجراماً واحداً. ويعادل الصاع ثلاث عكات أو تقريباً أربعة كيلوجرامات - بالدقة (٣,٨٤٦١٥٣) -. يبنى الدخل على العشر ولكنه حقيقة يجمع على أساس نصف العشر من إنتاج الأرض من الجنس المحصول في كل من بلاد شهران وعسير -مرتفعات أو سراة عسير-.

---

(١) وعن سير الحياة الاقتصادية في أبها، وبخاصة التجارة خلال القرن الهجري الماضي، انظر: ابن جريس **عسير ١١٠٠ ـ ١٤٠٠**، ص ١٦٣ ـ ١٨٩ . (ابن جريس).

(٢) ويسمى هذا السوق أيضاً «سوق بني رزام» ولمزيد عن المنطقة والقبائل التي يقام فيها هذا السوق، انظر: عبدالله بن علي بن عفتان. **بنو رزام تاريخ وحضارة** (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٢٤هـ) ص ٣ وما بعدها.

يصل مجمل الدخل الذي يتم جمعه إلى (٣٠٠,٠٠٠) صاع في السنة من هذه المناطق، نصفه قمح ونصفه شعير يبلغ الإنتاج الكلي ستة ملايين صاع -أقل قليلاً من (٢٤) مليون كيلوجرام- في السنة لكل المنطقة، وتبلغ قيمته، باعتبار ستة أصوع قمح و(١٢) صاع شعير للريال الواحد، يصل ذلك إلى (٣٧,٥٠٠) ريالاً أو (١,٨٧٥) جنيه استرليني ذهبي، بقيمة (٢٠) ريالاً للجنيه الاسترليني. لم يكن دخلاً كبيراً بالتأكيد لمساحة كبيرة كهذه[١].

وفي عصر إحدى الأيام ذهبت أنا والأمير ومعه بعض بطانته إلى أعلى وادي أبها مارّين بقرية المفتاحة، حيث يتسع المجرى إلى مروج جذابة، حيث كانت أعداد كبيرة من الأبقار ترعى تحت رعاية النسوة. يدخل الوادي قليلاً، أعلى من هذا الموقع، مسيل تتناثر عليه الجلاميد ومغطى ببركة ينمو عليها القصب وممتلئة بالضفادع والعلق وسرعان ما كان الجميع يتسابقون يجمعون هذه الكائنات الصغيرة لأجل مجموعتي. كانوا مستمتعين بعبث هذا العمل، وليس الأمير بأحسن حالاً منهم وقد كان مسروراً ولو لهذه المرة. كان هنالك النعناع البري، في هذا الجزء من الوادي، كما كان طائر أبلق جنوب الجزيرة متوافراً وكذلك العصافير أيضاً.

---

(١) كانت المنطقة الجنوبية من المملكة العربية السعودية من أغنى المناطق بثرواتها الزراعية والحيوانية، ولم يكن هذا منذ عصر فيلبي فحسب، ولكن هذا الثراء الاقتصادي يعود مئات السنين إلى الوراء، كما ذكرته كثير من المصادر التاريخية المبكرة. وللمزيد من الاطلاع انظر: أبو معين الدين ناصر خسرو. **سفر نامة (رحلة ناصر خسرو)**. ترجمة من الفارسية. أحمد خالد البدلي (الرياض: عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، ١٩٨٣م) ص ١٥٤، محمد بن جبير. **رحلة ابن جبير** (بيروت: دار الكتب، د.ت) ص ٩٨ ــ ٩٩؛ جمال الدين يوسف بن المجار. **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسمى تاريخ المستبصر**. تحقيق أو. لو فغرين (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٥١ ــ ١٩٥٤م) حـ١، ص٢٧، محمد بن عبدالله بن بطوطة. **رحلة ابن بطوطة**. تحقيق علي المنتصر الكناني (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) حـ١، ص ١٨٣ . (ابن جريس).

اتجهنا إلى منزل ابن ضاوي في رحلة العودة للجلوس في بلكونته عند الغسق نطل على أرض المنتزه وحديقة الحكومة، حينما كانت طيور الحدأة المحلية تهبط لقضاء الليل وكانت الخفافيش المحلية تغادر أعشاشها للصيد.

أثناء إقامتي اغتنمت أول فرصة لأجل الحصول على منظر جيد لأبها وما جاورها، وذهبت لزيارة القلعة التركية على جبل ذرة والذي بدا كأحسن موقع للمراقبة لهذا الغرض[١]. رافقني كل من محمد البسام وأحمد بن هليل الذي جلب معه دليلاً محلياً جيداً، وبعد أن استعددنا بتجهيز غداء خفيف، تمكنا من قضاء عدة ساعات نشاهد المنظر مع الكثير من المتعة والفائدة، نتحادث حول التاريخ الماضي للبلاد راصدين كل سماتها. شمخت قمة التل إلى علو (٤٠٠) قدم أو أقل قليلاً، فوق مستوى البلدة، وعلى قمتها حطام القلعة التركية (١٠٠) (خطوة مربعة) بقي منها ثلاثة أبراج سليمة وبعض ثكنات للحامية. توجد في القلعة نفسها عدة أحواض مبطنة بالأسمنت لخزن الماء الذي لا بد من جلبه من البلدة. بنى الأتراك - على أية حال- طريقاً متعرجاً منحدراً على التل، وقاموا بصيانته بتعبئة مستمرة للشقوق التي تسببها الأمطار لكي يتواصل استعماله لنقل الإمدادات المائية، وعربات المؤن وللمدفعية التي تسحبها البغال. لم تهتم الإدارة السعودية بهذه القلاع وكل المتاريس حول أبها قد أهملت لتتآكل[٢]. وكاد الطريق

(١) للمزيد من المعلومات عن هذه القلعة، انظر: محفوظ الزهراني، **تحصينات أبها**، ص ١٣٨ وما بعدها؛ ابن جريس (العمران في إقليم عسير)، ص ٥٧ ــ ٥٨ . (ابن جريس).

(٢) ومن يبحث عن هذه الآثار اليوم يجد أغلبها ضاع واندثر، وننادي الهيئة العليا للسياحة وأقسام الآثار في المملكة أن تبذل قصارى جهودها للحفاظ على ما تبقى من هذه الآثار في منطقة عسير وغيرها من مناطق المملكة. (ابن جريس).

المتعرج أن يختفي تماماً ويصعب استخدامه فعلياً لأي نوع من المواصلات. كان علينا أن نتسلق بأقصى ما يستطاع. وكانت محاولة مجزية، برغم أنه كانت توجد غيوم ناحية الجنوب والجنوب الشرقي ورياح جنوبيه قوية.

تقع تحت أقدامنا قلعة أبها ومن حولها قوس من القرى يحيط بها إلى شمال الشمال الغربي من موقعنا. ينتظم عدداً من أبراج المراقبة في شبه دائرة حول القلعة على مسافات متباينة، يبدو أنها تكون حزاماً واقياً في مواجهة الجبال وهذا يشرح -وفي بلاغة - الاتجاه الذي كان الأتراك يتوقعون منه المتاعب إن كان لها أن تقع - حيث توجد القبائل في مرتفعات عسير - كانت من بين هذه الأبراج ذرة عند أحد الطرفين تجاه جنوب الجنوب الشرقي تحرس القدوم من ناحية السهول عن طريق وادي ضلع. وكانت قلعة عوافة عند الطرف الآخر، وتخدم هدفاً مماثلاً، فيما يخص الطرق من السودة وشعار -حيث بالطبع كانت توجد الحامية التركية لحراسة طريق النقل-. وتوجد بينهما ستة مواقع خارجية مدعمة على تل منخفض هي: خرت، وأبو خيال، وجميمة على مسافات تتباين بين نصف الميل إلى الميلين من ذرة، إلى الجنوب الغربي، والجنوب، بينما تقع ثقل ودقل وشمسان على بعد ميلين ونصف الميل إلى (٤) أميال بعيداً ناحية الشمال الغربي. تقع شمسان، مثلها مثل عوافة، إلى اليمين من طريق محايل (شعار)، وكانت البقية تختص بمقاومة أي تجاوزات من مدخل وادي ضلع[١].

بصورة عامة تسمى الجوانب الشرقية للجبال العظيمة «الشرقي»، والتي ينبعج من جوانبها الرفيعة حوض سيل وادي أبها الذي يقف فيه، على مسافة ميلين

(١) وعن القلاع والحصون حول مدينة أبها، انظر: محفوظ الزهراني. **تحصينات أبها**، ص٦٢ وما بعدها. (ابن جريس).

ونصف الميل من ذرة ناحيـة الغرب، البرج المنفـرد العثربان على مسـافة الميلين من أولى قرى أبها وهي المفتاحة.

توجد قـرية صغيرة فـي رافد صغيـر يدخل وادي أبها من جانبـه الأيسر عند القابل تسـمى ضباعة على مـجراه الأسفل، بينما تقع قـرية صغيرة أخـرى تسمى الصفيح على الجانب الأيسر للوادي الرئيس قليلاً إلى أسفل. يدخل الوادي، فيما وراء منحنى كبيـر عند النصب في انسيابه تجاه الجنوب الشـرقي، وتقع إلى الجانب الخارجي لمناظر الـتي بالقرب منها توجـد قرية أم حـمار الصغـيرة[١]، أيضاً على الجانب الأيمن، إلى جانب قـرية أخرى صغيرة تسـمى البصرة في مواجهـتها على الجانب الآخر. تتكون مشيع وقد ورد ذكرهـا من قبل، من عدة مجموعات منازل على امتداد مجرى قصير يتصل بالجانب الأيمن للوادي، وينحدر عبر طريق خميس مشيط. تقف، أسفل هـذا الملتقى قريتا العرين الصغيـرتان على جانبي وادي أبها، الذي ينحني بعد ذلك جهة اليمين إلى قاعد وهي قرية صغيرة على الجانب الأيمن، وعلى مسـافة نصف الميل إلى أسفل، حـيث يوجد منحنى آخر إلى اليـمين يقوده ماراً بالدارة وبن نعمان في مجراه تجاه وادي بيـشة. انتصب بناءان على هيئة القلعة على تلّين إلى الجنوب من الطريق الرئيس يقومان بحراسـة الأرض الواسعة لحقول الذرة الصفراء إلى الشرق منـهما، إنهما يكونان قرية ثبتـة الصغيرة[٢]. تعطي هذه

(١) من أحياء أبهـا القديمة أم حمار، وشـعبة الحمَّار، وهي مـتقاربة في الموقع، وعند مجيء الأمـير/ خالد الفيصل إلى منطقة عسير غيَّـر أسماء هذه المناطق إلى اسم جديد هو:ــ (لبنان)، ولا زال من أحياء مدينة أبها الرئيسة حتى اليوم، انظر كتاب: ــ **أبها حاضرة عسير**، ص٢١ ، ٨٠ .(ابن جريس).

(٢) وتسمى هذه المنطقة اليوم باسم (سر ثبته)، وربما إن الاسم الصحيح هو (سيرثبته) . (ابن جريس).

القائمة مسحاً شاملاً لكل المناطق المأهولة مكوِّنة ما يمكن اعتباره أبها الكبرى[١]، يقدر عدد السكان فيها كلها، بما في ذلك العاصمة حوالي (٧٠٠٠) و (٨٠٠٠) نسمة إلى (١٠٠٠٠) بالمناطق الخارجية.

يواجه المرء السلسلة الجبلية العظيمة، إذا ما أدار ظهره ناحية هذا المنظر، لكل من القمة والحافة لهضبة شبه الجزيرة العربية. أنها السلسلة الفقرية للجزيرة العربية، وفيما يليها فإن كل الأودية تنحدر في شقوق عميقة وممرات ضيقة بين سلاسل شامخة، ممزقة، مستعرضة، تجاه البحر.

يوجد صدع واسع وعميق أمامنا مباشرة ناحية الجنوب، في الجبال التي تشمخ عالية في انحدار على جانبي الهاوية الفاغرة، المنسقة، وكأنها تتثاءب وهي تقود إلى وادي ضلع وعلى جانبها درب البغال. وينحدر إلى أسفل شق عميق يصل وادي عتود، غير المجرى الذي يحمل الاسم نفسه في خميس مشيط، والذي يجري بعد ذلك عبر سفوح جبلية تضمحل باستمرار إلى القرية الكبيرة درب بني شعبة التي تملكها قبيلة من تهامة بالاسم نفسه، ثم يعبر سهل تهامة إلى الشقيق حيث يدخل إلى البحر[٢]. عند الموقع الذي ينحدر فيه وادي ضلع والذي يبدأ في الأرض الصعبة حول قلعة جميمة، وينساب ناحية الشرق لمسافة الميل الواحد قبل أن يدور جنوباً إلى النطاق المقاوم للترسب والذي يقع على مسافة نصف الميل من

(١) وفي مخططات البلدية الحالية، وضمن مخططات التنمية في السنوات الماضية والحاضرة، فإن هناك تطويراً لمدينة أبها ليصبح اسمها:ـ (أبها الحضرية)، وهذا التخطيط والمسمى الجديد يشمل مدينة أبها الأم، وخميس مشيط، وأحد رفيدة، ومنطقة الشعف (الفرعاء، والجره وما حولهما)، وكذلك مناطق السودة وما حولها. (ابن جريس).

(٢) ويسلك هذه الطريق اليوم طريق معبدة تربط أبها بساحل البحر الأحمر، ويتجه هذا الطريق إلى جازان فبلاد اليمن، وقد ينحرف في بلدة درب بني شعبه ليواصل سيره إلى مكة المكرمة. (ابن جريس).

موقعنا، قليلاً ناحية الجنوب الشرقي، وهنا وإلى أسفل قليلاً، يتصل الوادي بمجرى سيل آخر من الشرق، شعيب قرضة الذي يبدأ في القمم العليا لمجار بقمتيه العظيمتين الشامختين من سلسلة جبلية مثلّمة طويلة تمتد إلى الجنوب الشرقي، وينساب عبر شق عميق حتى يتصل بضلع. تمتد حافة الفجوة التي يقع فيها ضلع، من نقطة تبعد حوالي نصف الميل من موقعنا، قليلاً ناحية الجنوب الغربي، إلى أخرى تبعد ميلين ونصف الميل شرق الجنوب الشرقي لقرية ذرة ومنها يستدير إلى اليسار ليتصل بالأرض المرتفعة على مسافة ثلاثة أميال ونصف الميل أو أربعة أميال إلى الجنوب الشرقي من موقعنا.

تكوّن الفجوة شفة ممزقة ومن فوقها من ذرة يستطيع المرء أن يرى الجلاميد الساقطة وكتوف الهاوية - منظر عظيم، لكنه كالح. تشمخ من جانبية كتل الجبال العظيمة لرخمة إلى اليسار وضمرو إلى اليمين وهي شديدة الانحدار خارج الوادي وتسمو إلى ارتفاع (٨٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. تقف الأولى بشموخ وجدارها يتوج بقمم ثلاثة مثلّمة، بينما يرفرف ضمرو بلطف إلى هضبة حادة القمة إلى الجنوب من ذرة ويستمر شمالاً على سلسلة جبال نبشة بقمة عالية ناحية الجنوب الغربي وقمة نهران المستديرة في هدوء حيث تصل السلسلة إلى ارتفاع متوسط (٨,٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، شيئاً ما تجاه الغرب. يستمر الشريط، فيما يلي هذه، لسلسلة جبال الكوثري وحليفة منحدرة من جهة جنوب الجنوب الغربي إلى شمال الشمال الغربي، على امتداد سلسلة ذات قمة عالية، ناحية الغرب، بينما خلف هذه يوجد ظهر جرده. وهو مرتفع ذو منحدرات مكسوة بالعشب تنتهي في فجوة خفيفة شمال حليفة فوق أرض راسية بارزة، تستمر بواسطة سلسلة جبلية

مسطحة، تحملها كتلة السودة العالية وفيها أعلى قمة في السلسلة الجبلية[١]، على ارتفاع (٩٠٠٠) قدم فوق سطح البحر وهي أقصى نقطة تجاه الشمال الغربي يمكن رؤيتها من ذرة.

لقد ذكرت من قبل رخمة على الجانب الآخر من فجوة ضلع والتي يحجب جدارها الصخري الشديد الانحدار المنظر الذي يقع من ورائها في ذلك الاتجاه – جنوب الجنوب الشرقي- غير أن شريط الجبال التي تكوِّن امتداداً لهذا الحاجز، يستمر شرقاً، غير أنه يميل بعد ذلك جنوباً بجوار مجار، الذي ذكرناه من قبل متبعاً لوادي قرضة والسلسلة الجبلية الضخمة الطول المسطحه (بركانية) لتمنية ذات العقد والثلمات[٢]. وتقع نهايتها بعيداً عنا قليلاً ناحية الجنوب الشرقي. تقع سلسلة جبال الأحد إلى الشمال من هذه النقطة وإلى يسارنا، وقريباً منا، وتشاهد قمة بركان القرن ناحية الشمال الشرقي. ويقع رخيني أخيراً بعيداً إلى الجنوب فوق التلال الممزقة، مكوِّناً الجانب الأيسر لوادي عتود، وهو كتلة مرتفعة لتهامة. وكان الحاجز من السودة إلى أقصى طرف لتمنية نبيلاً من تلال عالية وسلاسل جبلية ذات حافة مهدَّبة وقد دخلنا فيها[٣].

من بين النقاط القريبة المهمة، كانت هنالك مجموعة من القرى الصغيرة، وحقول الذرة الصفراء، في المجرى العريض الضحل لشعيب الشرف الذي يخرج

(١) جبال السودة من المواقع السياحية الجميلة في بلاد عسير، وتتوفر فيها اليوم جميع وسائل الترفيه للسواح والمصطافين. (ابن جريس).

(٢) تمنية: تقع في شعف شهران، إلى الجنوب من مدينة أبها بحوالي (٣٠ ــ ٤٠) كم، وهي من المناطق السياحية الجميلة في منطقة عسير. (ابن جريس).

(٣) البلاد الممتدة من السودة، جنوب غرب أبها، إلى تمنية، في الناحية الجنوبية من المدينة، عبارة عن سلاسل جبلية مرتفعة ذات انحدار شديد من الناحية الغربية حتى تتصل بالأجزاء التهامية لمنطقة عسير وأجزاء من منطقة جازان. (ابن جريس).

من أرض صعبة أمام تمنية وبالقرب من شفة فجوة ضلع لينساب إلى أسفل عبر أرض صخرية وسلاسل ليتصل بشعيب جوحان في طريقه إلى وادي أبها. القريتان الوحيدتان الصغيرتان اللتان يمكن رؤيتهما من هذا الموقع من ذرة في اتجاه أعلى الوادي، في هذا المجرى، هما حصن الأعلى -على بعد ميل ونصف الميل من موقعنا- والعمارات -حوالي ثلاثة أميال-. تقع أسفلهما القرى الصغيرة هضبة[١]، آل منسم، آل بالفلاح وأخيراً الحصن الأسفل، على بعد ميلين ونصف الميل من موقعنا. تكون هذه القرى وتراً يقع قليلاً ناحية الجنوب الشرقي من ذرة. يُوجد إلى الغرب من هذه، وعلى بعد نصف ميل فقط منها حقل منفرد في حقول صخرية تسمى قيشا! يمكننا رؤية الطريق وهو في استقامة واحدة مع قمة السودة، وهو ينحدر شيئاً ما إلى حيث تقف تلال غاوة بارزة كأنها الكتف حيث تستدير ثم تختفي فوق حاجب الجبل، وبرزت في هذه الأثناء، بعيداً ناحية السفوح الجبلية السفلى، قمتان، هرميتان غير أنهما ليستا بالحادتين ولكنهما مرتفعتان جداً، ومن خلفهما يمكن رؤية طريق محايل (شعار) مختفياً فوق الممر المنخفض المعلَّم بقرية أم الركب الصغيرة[٢].

هكذا كان المنظر الذي يشاهد من ذرة والذي لم تقع عين أوربي غيري عليه. هكذا كنت أفكر حينما بدأنا نزحف إلى أسفل على جانب التل الصعب، ومنه إلى بلاد صخرية ظهرت فيها دلالات محاولات سابقة لتنظيفها وإعدادها للزراعة في مساحات من تربة هنا وهناك. وجدت بجوار واحدة من هذه دائرة كبيرة من صخور خشنة كالأردواز، وما بدا كأنه القبر في مركزها. وحين السؤال عنها، اتضح أنها قبر لأوروبي! كان الأتراك هنا، كما ذكرت من قبل، ولزمن طويل قبل عام ١٩١٨م، ويدَّعي بعض الأتراك أنهم، في الاعتبار، أوربيون.

(١) ويطلق على هذه الهضبة اسم (هضبة بني جري) (ابن جريس).

(٢) تعرف باسم (أم الركب) فقط دون كلمة (الصغيرة). (ابن جريس).

يمكن -على أي حال- بصفة إجمالية، أن نعد الأتراك عنصراً آسيوياً، غير أن هذا القبر كان لإغريقي، بلا شك إغريقي لافانتي من أولئك الذين كانوا يزورون الموانئ البحرية على السواحل العربية مثل جدة والحديدة، ولكنه إغريقي على كل حال، وربما من أصل أوربي، وبالطبع كان مسيحياً. كان هذا الإغريقي بالذات، ويدعى خواجه بولو (السيد بول)، كما يدعونه، تاجراً محترماً جداً، وقد سعى إلى تكوين ثروته منذ (٣٠) عاماً في بداية احتلال الجيش التركي وعاش ومات في أبها. جاء ابن شقيقته ويسمى سبيرو من الساحل ليدفن خاله في هذا القبر غير المناسب في العراء، ولتصفية أعماله، استغرق ذلك (٢) أو (٣) سنوات قضاها في أبها. وعليه، لم أكن أنا، بعد كل ذلك، أول أوربي يزور هذه البلاد. اتخلَّى الآن وإلى الأبد عن أكاليل الفتح لذلك الرجل الميت في ذلك القبر الذي يجب أن يساق إليه كل الشرف لمغامرته المنفردة في هذه الأرض القاسية. وإذا عاش سبيرو، ووقعت عينه على هذه السطور، فسيدرك أن سجلات أعمال خاله قد تم تأمينها ضد النسيان.

لا يعرف رفاقي السنة التي مات فيها ذلك الخال، كما لم أستطع تحديدها باستفساراتي اللاحقة، غير أنه ربما كان يعرف الجنرال سليمان شفيق باشا، والي هذه المرتفعات في بداية هذا القرن، أو مَنْ قد خلفه وهو حيدر باشا، الذي شغل الوظيفة نفسها مدة عام واحد فقط، أو إذا عاش حتى فترة الحرب العظمى، كان آخر الولاة الأتراك هو الجنرال محيي الدين باشا، الذي حكم أبها مدة ٥ أو ٦ سنوات[1]، وحافظ على اتصالاته، بطريقة غامضة أثناء الحرب، مع الجيوش التركية في المدينة ودمشق، عن طريقهما بالقسطنطينية نفسها.

(١) للمزيد عن أسماء وتواريخ ولاة الدولة العثمانية في عسير من عام (١٢٨٩ ـ ١٣٣٧هـ / ١٨٧٣ ـ ١٩١٩م)، انظر كتاب:ـ **أبها حاضرة عسير**، ص ٥٤ . (ابن جريس).

قابلت مؤخراً، واحداً من هؤلاء الرجال العظام، هو سليمان شفيق باشا، في سنوات عمره المتقدمة كان أباً، بالمناسبة، لثلاث بنات جميلات، إحداهن فازت بمسابقة «آنسة تركيا» في مسابقة جمال عالمية، قليلاً قبل هذا الوقت في جدة والطائف، حيث كان يقضي شتاء حياته كضيف ومتقاعد لدى ابن سعود. كان ملتحقاً بالفرع الهندسي للجيش التركي وإليه يعزى الجسر ذو البناء المتين، والجذاب، فوق وادي أبها، الذي يصل القابل مع الجسم الرئيس للبلدة. وتمكنت من رؤية الفيلا التي قام ببنائها لنفسه في ضاحية القابل.

ذكرت سابقاً، في حديثي عن الحكام، أن شويش[١]، أول حاكم سعودي، بعد فترة ابن عايض، والتي بدأت بعد مغادرة الجنرال محيي الدين وذلك بعد الحرب العظمى. كان شويش قد خلف في منصبه بواسطة ابن عفيصان[٢]، بعد حملة الأمير فيصل، وكنت أعرفه حاكماً على الأفلاج في عام ١٩١٨م. جاء بعده ابن حيفان الذي لا أعرف عنه شيئاً والذي ظل في الوظيفة لوقت قليل ثم خلفه المهيب عبدالعزيز بن إبراهيم، والذي، فيما بعد، نقل إلى المدينة وظل هناك لعقد من الزمن حتى عام ١٩٣٦م، حينما قبل الملك استقالته في عشيرة قبل أن أبدأ هذه الرحلة. ثم صار عضواً، من حينها، في مجلس الوكلاء في مكة، حتى وفاته عام ١٩٤٦م أو ١٩٤٧م[٣].

---

(١) شويش بن ضويحي، أول أمير عين في أبها في عهد الدولة السعودية الحالية. (ابن جريس).

(٢) إن الذي عقب شويش بن ضويحي في إمارة أبها هو عبدالله بن سويلم (١٣٣٩ ــ ١٣٤٠هـ) لمدة (٩) شهور، ثم جاء بعده فهد بن عبدالكريم العقيلي، لبضعه شهور خلال عام (١٣٤٠هـ) ، ثم جاء سعيد بن عفيصان من عام (١٣٤٠ ــ ١٣٤٢هـ)، ثم ابن جيفان بشكل مؤقت بعد موت ابن عفيصان، ثم عبدالعزيز بن إبراهيم من عام (١٣٤٢ ــ ١٣٤٣هـ). ولمزيد من التوضيحات عن أمراء منطقة عسير منذ بداية الحكم السعودي الحالي إلى الآن، انظر. ابن جريس. **أبها حاضرة عسير**، ص ٦٠ . (ابن جريس).

(٣) كانت وفاة عبد العزيز بن إبراهيم في شهر رجب عام (١٣٥٦هـ / الموافق عام ١٩٤٦م)، انظر: عبدالله بن سعيد أبو راس. **عبدالعزيز بن إبراهيم آل إبراهيم** (الرياض، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ص ٣٤٤ . (ابن جريس).

حينما غـادر أبها، جاء في مكانه عبدالله بن عسكر الذي توفي عام ١٩٣١م أثناء إجازة اضطرارية من وظيفته، حيث ترك أحـد أبنائه ينوب عنه. استمر الأخير يقوم بدور الحاكم حـتى حل محله الأمير تركي السـديري، الذي أصبح من بعدها صاحب المنصب وبمساعدة أخـيه خالد، حتى انتقال الأخير إلى تبـوك حاكماً على المنطقـة الشمـالية في عـام ١٩٤٨م. كـانت هذه هي قصـة أمراء أبهـا – أتراك، ومحليين، وسعوديين –وبالتالي– كاملة لفـترة (٤٠) عاماً– تلك الفترة التي بدأت بمحنة وانتهت باسـتقرار سلمي وُضع تحت الاختـبار لمدة عشرين عـاماً، ويبدو أنه باقٍ.

كان من البديهي أن أقوم بزيارة السودة وشعار أثناء إقامتي في أبها. غير أنني في هذه الأثناء، شغلت نفسي بالبلدة وما جاورها. كـان البعوض موجوداً، ولكن ليس بالكثرة، كـما في خمـيس مشيط وشعـيب حجلا ويبـدو أنه غائب عن هذه المرتفـعات، علمـاً بأن إقامـتي داخل منزل قـد تكون سببـاً في فشلي مـلاحظة البعوض. يوجد في المنزل الكثـير من البراغيث والبق التي كانت صحبتهـا القبيحة تمحو من آثارها مـلاحظة نوعين من الفراشـات خطافية الـذيل. كانت فواكـه أبها مخيبة للآمال، فقط المشـمش والتوت من مزرعة أحمد بن هليل. لم تكن الطيور بأقل تثبيطاً للآمال. كانت طيور البلبل واليـمام، والعصافير وأبلق جنوب الجزيرة، في كثرة وطيـور الحابك وعششهـا. كان من الطبيعي مـشاهدة كل أنواع الغربان، وقد سبق أن ذكرت الحدأة كما لاحظت السُّبَّد.

كان هذا كل ما شـاهدته في جوار أبها غير أنه هناك، وفي الجـبال، ستكون القصـة غيـر ذلك. شاهدت، فـيما يخص النـقوش، إلى جانب تلك الـتي سبق ذكرها، نقشاً دينيـاً باللغة العربية بالقرب من بيت المصري في مـشيع، بينما نقش

الجنود الأتراك في حامية ذرة أسماءهم على هذه الصخور الكئيبة مع أشكال من حين لآخر لبشر وحتى لسيارات، والتي بلا شك لم يروها في هذه الأنحاء والتي ربما ذكرتهم -في المنفى- بمسيرة الحضارة في أجزاء أخرى من الإمبراطورية التركية.

رتبت رحلتي إلى السودة على أن تبدأ في عصر يوم ٨ يونيو، وكنت ميالاً إلى أن أقوم بملاحظاتي للنجوم في الأمسية السابقة، وعند الساحة بجوار برج القلعة العظيم. تحرك قطار الحمير، حاملة متاعي، بعد منتصف النهار، للرحلة الطويلة إلى أعلى الجبال، بقيادة سعد وتحت تصرفي طباخ من طرف الأمير. ولحقت بهما، بعد ساعة، بعد أن تناولت الغداء مع الأمير ومعي حرسي، على ظهور البغال من اسطبلات الأمير. استغرق وصولنا إلى الممر عند القمة التي يطل عليها جبل غاوة الذي يشاهد من ذرة ناحية غرب الشمال الغربي من قلعة أبها، حوالي الساعة وربع الساعة. كان على رأس فرقتي، عبدالله بن راشد من أبناء قبيلة علكم (عسير)، أحد تابعي الأمير، ويبدو أنه ملم بمعرفة البلاد إلى جانب رغبته أن أكمل رحلتي بنجاح.

واصلنا سيرنا من الممر، فوق امتداد مستوى فوق أنف التل مع شعيب ضمن على يسارنا منساباً ناحية العُثْرُبَان والمجرى الأكثر أهمية الذي هو شعيب عشران على يميننا، ماراً عبر منطقة علكم ومنطقة بني مالك -كان شيخ القبيلة الأخيرة هو ابن هشبل[1]- ومن ثم إلى وادي بيشة والذي يتصل به أسفل وادي أبها. يبدأ

(١) أخطأ فيلبي بذكر أن ابن هشبل شيخ قبيلة بني مالك، والصحيح أن ابن هشبل شيخ قبيلة بني بجاد الشهرانية، وابن معدي شيخ قبيلة بني مالك العسيرية. وسبب تجاور مواطنهم وقراهم ربما تكون السبب الرئيس الذي أوقع فيلبي في هذا الخطأ. (ابن جريس).

الوادي بالفعل عالياً على تل السودة نفسه، ويجري مسارنا، موازياً له تقريباً، في معظم الوقت. تقع إلى البعيد وعلى يسارنا، بعض حقول ومباني المخضُّ عالياً في الجبال، بينما عند نهاية المسافة المستوية عبر أنف غاوة هبطنا من حقول ذات مساطب لبعض المحاصيل البقولية إلى قرية السحراء ذات الحجم المعقول، بارزة في جمال فوق المساحات الزراعية المعتبرة على جانبي المجرى. تتبع القرية -المبنية من الحجارة على تل منخفض- بني مغيد (من عسير) وكانت على ارتفاع (٤٥٠) قدماً فوق أبها. لا بد وأن يكون ممر غاوة على ارتفاع (٨٠٠) قدم فوق مستوى البلدة. كان سفرنا مستوياً لفترة على امتداد الوادي، في اتجاه غرب الشمال الغربي، غير أنه، بعد نصف ساعة بدأ الطريق يصعد في انسياب، تاركاً المجرى على يميننا يتحول وبسرعة إلى غابات.

كنا خلال نصف ساعة عند ارتفاع (٣٥٠) قدماً فوق السحراء، وتفرع الطريق على اليمين، متجهاً إلى وادي التلاع هبطنا هنا قليلاً، قبل أن نصعد مرة أخرى تدريجياً، ولكن في هدوء، إلى أعلى جانب الجبل، الذي كان مخضراً بكثافة الأشجار مثل:ـ الشث، والجبر، والعثرب - الذي انتشرت فيه -، مثل الوادي، بأشجار الطلح جيدة النمو[١]. وصلنا عند هذه النقطة إلى أول أشجار العرعر الجبلية، والتي سرعان ما تحولت إلى غابة حقيقية، فوق مستوى الوادي، حيث رأيت حقول قمح، على وشك الحصاد، والورد البري ويسمى العَبَل في قمة إزهاره[٢]. كان منظراً رائعاً بعد صحراء الأسابيع الماضية وبعد قفر السفوح الجبلية الصخرية. تزداد البلاد جمالاً أكثر وأكثر مع كل خطوة نخطوها إلى أعلى.

---

(١) للمزيد عن هذه الأشجار في منطقة عسير وما جاورها من المناطق، انظر: فريدة بنت محمد بن حسين قدح. **الغطاء النباتي الطبيعي في الإقليم الجنوبي الغربي**. (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ص ٩٣ ــ ١٠٨ . (ابن جريس).

(٢) الاسم الصحيح لهذه الشجرة هو:ــ (العَبَالْ). (ابن جريس).

تقع قرية حصن جـارن بعيداً، إلى اليمين من موقعنا، على جـانب تل، فيما يلي المجرى، في مسيل شعيب العكاس الصغير، وظهرت غابات العرعر الحقيقية، بعد مـواصلتنا السيـر لمدة (١,٥) ساعة من السـحراء، تكسو جـانب التل سلسلة جبال غاوة التي وصلنا إلى قمتـها بعد نصف ساعة. كنا هنا على ارتفاع (١٥٠٠) قدم، تقريبـاً، فوق أبها و(٨٥٠٠) قدم فوق مـستوى سطح البحـر. كنا فعلاً في الجبـال، وهناك فيما وراء الحـافة العليا لغابـات العرعر، نظرنا إلى حقـول القمح والشعير الذهبية لمنطقة السودة، تهـبط في مساطب على سطح محسن كشرائط من لون أصفـر ذهبي ومن خلفها العـرعـر الداكـن الخضرة مبـعثـراً في مجـموعـات صغيـرة أو كبيـرة حول القمة. لا تزال محاصيل قمح الشـتاء والحبوب في انتظار المنجل اليدوي للحاصد، بينما كان الشعيـر قد تم حصده تقريباً. كانت الأكوام لا تزال في صفوف في حقول الجداثه. مررنا بعد قليل بأولى قرى الجبال وهي دهيلة على مسافة نصف الميل وعلى يميننا تحت جبل يسمى مرتمة وهي مجرد قرية صغيرة في وسط حقول قمح واسعة. أصبح الطريق، فيما يليها، صعباً جداً، وفي بعض الأجزاء، صخرياً جداً ومـتعرجاً، مخترقاً غابة عـرعر، تتخللها هنا وهناك مناطق مكشوفة لغربلة القمح. كـانت المسيرة صعبة جداً بالنسبة للحـيوانات، وقد تعثرنا كثيـراً في الصخور عند الغـسق ذلك لأن الشمس قد غربت بمجـرد مرورنا دهيلة لنصل أخيراً إلى قـرية السودة نفسها، أقل من (٢٠٠٠) قدم فـوق أبها، وحوالي (٨٩٠٠) قدم أو أكثر قليلاً، فوق سطح البحر.

كانت السـودة قرية غريـبة جداً، ليـست بالكبيرة، ولكنهـا مكوَّنة من صف مصمت من منازل مظلمة ذات طابق واحد، بلا شوارع أو مماسٍ ولا أبواب إلاَّ في المنازل التي تكوِّن المحيط الخارجي والتي تتجه مداخلها كلها إلى الخارج. لا توجد

وسائل للحركة الداخلية من منزل إلى آخر، غير أن كل منزل - وكلها تتكوَّن من غرفة جلوس واحدة ملحق بها مطبخ، ومن حين إلى آخر ارتدادات تبدو كأنها دواليب أكثر منها غرف- به درج واحد ثابت، يقود من الطابق الأرضي إلى السقف عن طريق كوَّة خشبية. تستخدم هذه الكوَّة لخروج الدخان المتجمع في الغرف وتساعد السكان بوسيلة يزورون بها بعضهم بعضا، دون الحاجة إلى مغادرة القرية. إذا ذهب أحدهم لزيارة آخر، فإنه يطرق، ليس على الباب، وإنما على الكوَّة. كان السبب من وراء هذا الترتيب الغريب واضحاً، يلاحظ في حالة عدم الأمان التي ميزت هذه المرتفعات حتى وقت قريب، مما اضطرهم إلى سد وغلق كل الأبواب ليلاً، لتحويل القرية إلى حصن مستقل. لم يكن للسكان الوقت الكافي للتفاعل، خلال ١٥ عاماً مع نظام السلام والأمان الجديد. تبدو كل القرية كأنها ذات سقف واحد مثقب بالعديد من الكوَّات ومقسم إلى منازل مجزأة بواسطة سلسلة طينية منخفضة ارتفاعها لا يزيد عن (١٢) و (١٨) بوصة. كان البناء الوحيد، المكشوف للسماء، هو المسجد الذي يقع في وسط القرية، وبه درج من سلالم طينية عند السور المحيط به (سور القرية) الذي يقود إلى مدخله الوحيد.

استُقبلنا بكرم ظاهر من قبل أسرة تسكن أحد المنازل المتجهة إلى الخارج في القرية. مررنا عبر صالة تشبه النفق المظلم إلى غرفة ذات حجم لا بأس به، أيضاً مظلمة وممتلئة بالدخان. كانت فرقتنا التي تحمل العفش قد سبقتنا إلى هنا لتُعلن عن قرب قدومنا، وكان كل شيء جاهزاً لاستقبالنا. تجمع لديّ الانطباع، خلال الظلمة الكئيبة بأن الغرفة كانت ممتلئة بالناس - الوجوه المألوفة لزملائي، ومما لاشك فيه أن مضيفينا من أعيان البلدة وأخيراً وليس آخراً، نسوة المنزل، غير

متحجبات ويجلسن على مساطب منخفضة مبنية من اللبن من حول الجدران، بين الرجال، ويشاركن في الحديث فيما يبدو وكأنه أمر عادي، مقاطعات من حين لآخر الحديث، بالذهاب إلى المطبخ والذي يمكنني رؤيته من مقعد التشريف الذي أجلس عليه. كان عدد النسوة، على ما أظن، ثلاثة: منهن أثنتان في وسط العمر، والثالثة، ابنة صاحب المنزل، عذراء مع بعض الغرور بالجمال. كانت الوجبات الخفيفة المعتادة قد تم تقديمها، ومعظمها من مستودعاتنا الخاصة، ذلك لأن هذا المجتمع كان وبكل وضوح مجتمعاً ريفياً فقيراً، ينظر إلى أشياء مثل الشاي والقهوة، والسكر، كأنها كماليات ورفاهية. غير أن لحم الضأن، والخبز، لوجبة العشاء كانا من جانبهم، ناقشنا ترتيبات قضاء الليلة بعد أن انتهينا من تناول وجبة العشاء[1].

يبدو أنه سيكون موضع نوم كل واحد منا هو مكانه حيث هو الآن، غير أنني لن أفعل ذلك، وأعلنت رغبتي في الهواء الطلق واعترفت بعدم استطاعتي النوم إلاَّ في خيمة، هذا كان له وقع كالصاعقة على مضيفيّ الذين حذروني من البرودة الشديدة لهواء الجبال ليلاً. أجبتهم بأنني قد قدمت من بلاد أكثر برودة من بلادهم هذه، أخيراً كانت الموافقة المرحة بالسماح لي بالنوم فوق السطوح. وفعلته بمجرد ما سمعته. وقام سعد بنقل فرشي ومعداتي التي أحتاج إليها في معسكري، عبر الكوَّة، بما في ذلك مصباحي اللامع، الذي لا بد وأنه قد أضاء كشعلة المنارة فوق الريف الواسع. كان النوم المبكر هو القانون في القرية، وسمح لي بالذهاب إلى جناحي الغريب، بين الدعوات العالية والآمال من جانب مضيفيّ ومضيفاتي -هؤلاء قد ناموا في المطبخ- بألاَّ أصاب بالبرد.

---

(١) لمزيد من المعلومات عن العادات والأعراف والتقاليد الاجتماعية في منطقة عسير، انظر: ابن جريس. **عسير (١١٠٠ ـ ١٤٠٠ هـ)**، ص ٣٣ وما بعدها. (ابن جريس).

قررت، بعد يوم مليئ بالنشاط أن أنام مبكراً، ولكن، قبل أن أقبل على ذلك، عند الساعة الحادية عشرة مساءً، قمت بفحص الترمومتر (مقياس الحرارة). كانت درجة الحرارة (٥٥) درجة فهرنهايت وكانت الدرجة الدنيا لليلة (٥٣,٥) درجة. هبطت الحرارة في الليلة التالية إلى (٥١) درجة. نمت طويلاً تحت قبة مدهشة من النجوم في سلام الجبال الهاجعة.

صحوت مع بزوغ الضوء في الصباح عند الساعة الخامسة لأشاهد الشمس مشرقة من بين غمام الشرق البعيد، ومضيئة لحقول الذرة الصفراء الذهبية، تحت أقدامي، ذات المساطب إلى أسفل المنحدر الواسع، المنحنى، للتل في شكل مسرح روماني ضخم، وأشجار العرعر على حواف غاوة كأنها المسرح. أحضر لي سعد الشاي من الكهف تحتي وجلست أعبئ الحشرات التي جمعتها بالأمس، التي جذبها ضوء المصباح، في أوراق، ولأكتب مذكراتي، غير أن موقفي هذا غير القويم سرعان ما أدى إلى هجوم، إذ بدأ القرويون الفضوليون، الواحد بعد الآخر، يمدون أعناقهم ورؤسهم خارج الكوات ويتقدمون في حذر حتى بدا، بعد قليل، وكأنني استقبل سكان القرية، في مقدمتهم كبار السن، يجلسون في وقار، على حواجز السور حول جناحي من السور المشترك، والأطفال ينطلقون على أطراف الحشد وجماعات من نسوة فضوليات هنا وهناك في خلفية الصورة كن بلا شك مستغربات للرجل المجنون الذي قضى الليلة في السطوح. كان أمامي النهار كله، ولم أكن في عجلة من أمري لأقطع روعة حشد كهذا، تقدمت نحوي امرأة دون خجل، لتضع سلطانية لبن طازج بجوار سريري، ومن حين لآخر يتقدم أحد الصغار في خجل، ليرى الحشرات التي كنت قد جمعتها أثناء الليل ويسجل نفسه كزميل في بحثي عن كائنات الأرض سحالي أو جرذان أو طيور أو بيض أو أي شيء.

رضخ المتقدمون في السن من رجالات القرية للإجابة عن أسئلتي وأدلوا إليَّ بمعلومات كثيرة والتي منها نظمت التاريخ القبلي المحلي كما يلي: ينقسم اتحاد عسير القبلي -كل النجدين بلا شك- إلى مجموعتين رئيسيتين - عسير الحجاز وعسير تهامة- بناءً على موطنهم إن كان في السلسلة الرئيسة أو في السلاسل المتعارضة والأودية بينها وبين السهل (تهامة) الساحلي[١]. يشتمل عسير الحجاز على أربعة أقسام:

(١) بني مغيد ويرأسها عشيرة آل عايض العشيرة الرئيسة في عسير[٢]، وقد تحدثت عن رؤسائها من قبل، وتعيش في الجبال العالية والأودية في الجزء الجنوبي، تقريباً من وادي ضلع إلى شعيب عشران.

(٢) علكم، تقع إلى شمال السابقة من شعيب عشران إلى شعار.

(٣) ربيعة ورفيدة، إلى الشمال مرة أخرى. وأخيراً.

(٤) بني مالك إلى الشرق والشمال الشرقي بالنسبة للقسمين السابقين[٣].

---

(١) انظر إلى تفصيلات أكثر عن الطبيعة الجغرافية لمنطقة عسير، السروية والتهامية. عبدالرحمن صادق الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية. إقليم جنوب غرب المملكة**. (الرياض: دار المريخ ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) حـ٢ ، ص ١٨٥، ٢٧٥ ــ ٣٣٣ ، ٤١٣ ــ ٤٤٣ .

(٢) آل عائض هم أمراء منطقة عسير من عام (١٢٤٩ ــ ١٢٨٩هـ / ١٨٣٣ ــ ١٨٧٣م). أما مشيخة قبيلة مغيد، فكانت في أسرة ابن مشيبة، ثم انتقلت إلى أسر آل مفرح، ولا زالت فيهم إلى الآن، انظر: علي أحمد عسيري. **عسير من ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م ـ ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م) (دراسة تاريخية)** (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ص ١٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) وقع فيلبي في بعض الخلط أثناء ذكره مواقع قبال عسير الرئيسة الأربع (مغيد، وعلكم، وربيعة ورفيدة، وبني مالك). وربما نلتمس له العذر لأن بعض مواطن هذه القبائل الأربع متداخلة مع بعضها. (ابن جريس).

تقع إلى ما وراء هذا الاتحاد، شمالاً فيما يلي شعار، مجموعة قبلية أخرى، تتكون من بللحمر وبللسمر وبني شهر، بينهما إلى الجنوب، من وادي ضلع إلى سلسلة جبال تمنية توجد عناصر شهران التي إلى شرقها وجنوب شرقها توجد عناصر قحطان، رفيدة وغيرها. يكفي هذا للأقسام الرئيسة لقبائل السلسلة الجبلية والقبائل المرتبطة بها. أما قسم تهامة عسير فيتكون من سبعة أقسام: (١) بني زيد يرأسه علي بن محمد الحياني، (٢) آل ثعلب يرأسه محمد الأرثي، (٣) بني جونة يرأسه محمد بن سلطان، (٤) بني قيس يرأسه حسن بن أحمد بن متعالي، (٥) بني قطبة يرأسه محمد الشقير، (٦) بني شحب يرأسه أبو عوجه، (٧) بني ظالم يرأسه إبراهيم بن عبدالله الرفيدي. يوجد بني قطبة تحت قسم مستقل تقريباً، يسمى أهل العوص. يوضح الترقيم أعلاه هذه القبائل في توزيعها الجغرافي من الجنوب إلى الشمال ممتدة في اعتقادي، من وادي عتود إلى أعلى[١].

صرفت جمهرتي هذه بعد أن استوعبت كل المعلومات وزيادة، وعمدت إلى الوضوء وارتداء ملابسي، لأتنزه بجولاتي حول قمة الجبل. كان معظمها مغطى بحقول الذرة الصفراء، في قنوات واسعة منخفضة مكوِّنة الرؤوس لمثل مجاري التصريف هذه كما في شعيب عشران – كلها روافد لوادي بيشة. كانت الأراضي المرتفعة مملوءة بغابات أشجار العرعر مع الورد البري والزعتر والخزامى ونباتات أخرى بوفرة. وفي وسطها كلها، وجدت نفسي في عالم للطيور جديد، وكانت الجواهر الرئيسة بينها هي: العقعق الجديد والزقيقة الجذابة – اكتشف لأول مرة في

(١) لمزيد من الاطلاع عن قبائل منطقة عسير في السراة وتهامة، انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة**، حـ٢، ص ٢٧٥ ــ ٣٣٣، ٤١٣ ــ ٤٤٣، هاشم النعمي. **عسير**، ص ٦٩ وما بعدها . (ابن جريس).

اليـمن بواسطة وإيمان بري Wyman Bury ويوجـد بوفرة هنـا. يغرد بين أفـرع العرعر، وخجول جداً، واليمامة اليمنيـة في أعداد معتبرة إلى جانب يمام الصخور ودخلة بري وقـد اكتـشفـها هو في اليـمن، مـخلوق صغـير، دقـيق يختـبئ في الأجمات، وقنبـرة حمراء الرأس تعشعش في حقل الذرة أو تحت الصـخور وقنبرة متوجة، اكتـشفت أول مرة في اليمن، ونوعان من الجشنة وعصافيـر متزاوجة وقد اصطدت اثنتين في حالة تزاوج والسلوى والحجل الذي وجد لأول مرة في الطائف والذي تحصلـت منه على عشر بـيضات، والأبلق والهـازجة وكـثير مـن السوَّادية وطيور أخرى يبـدو أن معظم هذه الطيور معـشعشة. وقد قتـلتُ بالرصاص قنبرة حمراء الرأس وهي في عشها وأخذت فراخـها الأربعة للمساومة. وكان مما أضيف إلى مـجمـوعـتي، جرذ، وأرنب، وثعلب وغـيـرها، ومن وجهـة نظر التـاريخ الطبيعي، فإن حملتي إلى السودة كانت نجاحاً منقطع النظير.

لقد نجحت في أن أربط بين مساحـتين جبليتين منفصلتين، اليمن في الجنوب وأقليم الطائف في الشمال وأوضحت أن المجموعة الحيـوانية منهما كانت متماثلة. كان كل هذا الحزام من الجـبال واقعاً تحت تأثيـر الرياح الموسمية، ومناخـها، بينما شمال الطائف كانت البـلاد الجبلية منتمية بكل تأكـيد إلى النطاق الصحراوي ومن حيث الثراء الحيواني فهو مختلف جداً من الجزء الجنوبي للحاجز[1].

كان المنظر مـختلفاً بالدرجـة نفسها، تجـولنا هنا عند قمة السـودة بين غابات العرعر، تضربها الرياح وقد نمت وجذوعهـا ضخمة مشوهة وورق غزير في تضاد

(١) للمزيد عن الجغرافيا الطبيعية للبلاد الممـتدة من الطائف شمالاً حتى جازان ونجران وعسير جنوباً، انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة**، جـ٢، ص ٣٣ وما بعدها. (ابن جريس).

مع الأيكات اللطيفة في السفوح الشمالية الأكثر حماية، ذات الشجيرات الطويلة المشذبة، التي يرغب فيها البنَّاؤون في المدن المجاورة. كان محط العرعر في القمة غطاء نباتي ثري من نباتات زهرية، وأجمات ضخمة هنا وهناك إلى جانب المياه التي تقطر والتي بالكاد يستطيع المرء أن يقول إنها جدول حيث ينمو القصب، والدفلى، والزعتر العطري، والنعناع البري، والخزامى. عند حافة الجرف هناك صخرة عظيمة كالكتف تدعى الفاس، تبرز في انحدار عنيف إلى مئات الأقدام إلى الهوة المتثائبة عند المخاوية، -ربما أم خاوية بدلاً عن الخاوية[1]- لتستمر كحوض سيل عليه جلاميد منتثرة تساقطت في كتل من جبل محطم.

يقدم على الجانب الآخر من الفاس، صدع آخر في صفحة الجبال منبعاً لمسيل آخر يطلقون عليه اسم جوآل النجيم ويتصل به في المخاوية بعيداً، عند الأنف الذي تمتد إليه قدم فاس. يجري، بعد ذلك، المجرى المنتظم لحوض السيل الممتد بين سلاسل منحدرة ليتصل مع شعيب مربة، أيضاً ومن مواليد جانب الجبل، الذي ينساب إلى البحر عبر حقول الدخن الثرية في الدرب في سهل تهامة، والذي يسمى هنا باسم: الخبت، أو البلاد المنخفضة.

تسلقنا إلى قمة فاس، التي ترتفع إلى (٩٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، وعندها تمكنا من مشاهدة منظر باهر للأراضي الرأسية للجرف ناحية الجنوب، كل

(١) وفي الجزء الجنوبي من المملكة العربية السعودية، وبخاصة في مناطق عسير وجازان التهامية، يقلب أحياناً (ال) التعريف لتصبح (أم) فمثلاً يقال: ــ (الرجال) وأحياناً يقال (أمرجال)، والأمثلة من هذه الكلمات والعبارات كثيرة. وكما ذكرت سابقاً أن اللهجات في هذه المناطق جديرة بالدراسة العلمية الجادة. (ابن جريس).

منها منبع لسيل جارف يهبط في انحدار شديد إلى شبكة من جبال ليشق طريقه إلى مربة والتي رأينا جانباً لها ناحية الجنوب، حيث يلتف إلى اليمين من حول سلسلة جبلية طويلة تفصلها عن المخاوية وتستمر مارة بسلسلة جبال سفح وعرفة وتجري جنوباً لتصل بوادي ضلع في طريقها إلى السهل وإلى البحر. يسمى الوادي من هذه النقطة شعيب درب بني شعبة. تكوّن كل من سلسلة جبال سفح وعرفة -الأولى ذات قمتين والثانية ذات قمة واحدة- الحدود القبلية بين علكم على الجانب القريب حيث ينساب جوآل النجيم إلى الأسفل، ورجال ألمع على السفح الأبعد، والذي يجري أسفله شعيب حسوة وهو رافد آخر لشعيب درب بني شعبة، والذي يمكن رؤية مجراه الأعلى إلى الجانب القريب لسلسلة أخرى تسمى الشرفة إلى الجنوب الغربي من موقعنا، والذي توجد على قمته أربعة أبراج مراقبة (للنظام التركي). كان يقع أكثرها ناحية الغرب بالفعل أسفل القمة، قريباً من حيث تنحدر السلسلة الجبلية انحداراً شديداً ناحية القرية المهمة شعبين التي يمكننا رؤية جزء منها ناحية الجنوب الغربي. يجري وادي الشعبين إلى ما وراء سلسلة جبال الشرفة، كأنها قائمة على الحراسة فوق القرى، كانت ذات يوم مرصداً عسكرياً مهماً لحماية ممر أبها عن طريق السودة ولا تزال تخدم غرضاً مماثلاً كمركز إداري وتجاري تحت نظام الوهابيين، والذين كان يمثلهم في هذا الوقت عبدالله الدويش وهو تاجر سوري سابق.

ينقسم مجرى الشعبين عن شعيب درب بني شعبة بسلسلة جبلية عريضة تسمى عقبة رز والتي عند سفحها توجد قرية مهمة أخرى هي رجال ألمع[1]، عند

(١) بلاد رجال ألمع بلاد واسعة تمتد حدودها من محافظة محائل شمالاً إلى أطراف بلاد درب بني شعبة جنوباً. أما القرية التي أشار إليها فيلبي فيطلق عليها اسم: ــ (قرية رجال) فقط دون إضافة كلمة (ألمع). (ابن جريس).

النقطة التي يتحول فيها وادي الشعبين إلى اليمين ليذيب نفسه في مجرى وادي حلي الذي يخترق سهل تهامة إلى البحر عند ميناء حلي. لقد تمكنا بذلك، من فاس، رؤية منظر لاثنين من أعظم نظم الأودية التي تنسج طريقها إلى البحر عبر المتاهة الحقيقية لجبال تهامة.

تقع عرفة على بعد ميل واحد من موقعنا، وفي خط مستقيم، أما سفح فهي على بعد ثلاثة أميال وربما كانت سلسلة جبال الشرفة على بعد أربعة أميال. كان الاتجاه العام لخطوط الصرف هذه هو ناحية الجنوب فيما يبدو، إلى أن تصل إلى الخطوط الحاملة الرئيسة المتجهة غرباً إلى السهل. شمخ بعيداً ناحية الغرب، إلى ما وراء سلسلة جبال سفح وعرفة، جبل فخر العظيم ذو القمتين (رجال ألمع) وعلى جانبه القريب وادي الشعبين، بينما على مسافة ناحية الجنوب الغربي يوجد تلان بارزان يربطهما مرتفع عميق يسمى قرية آل قفيل وعند سفحه توجد القرية، وكذلك فقوة -ولها هضبة صغيرة-، كلاهما في منطقة رجال ألمع. تصعب رؤية سهل تهامة فعلياً فيما يلي هذا الحاجز لجبال صعبة، بسبب الغيوم الكثيفة، مما ثبط من توقعاتي أن أتمكن من رؤية البحر.

يقع منبع المخاوية الفعلي، قريباً من نقطة مشاهدتنا، على بعد نصف الميل إلى ناحية الشمال الغربي في الحدبة ذات الغابات الكثيفة عند النهاية القريبة لسلسلة جبلية منخفضة تسمى العريض، ولها حدبة مركزية وحدبة أخرى ثانية عند طرفها البعيد الشرقي وتسمى آل مجدة وتبعد مسافة ميل ونصف الميل من موقعنا. تقع قرب الأرض المغطاة بالعرعر والمسماة ضرره وبها نبع في بطن سيلها الحصوي، وهو ماء يقطر نازاً من بين النقر الخشنة في الصخور التي تقودها إلى

الهاوية. كانت أقرب الأراضي الرأسية الجنوبية على بعد ميل واحد، وتسمى جدعة إلى الجنوب الشرقي من موقعنا، وتقع العشّة ناحية الجنوب، كما برزت الحفير مع قرية الرحمة على جانب تل من ورائها، وأخيراً قرية الحرملة[١] التي تقع ناحية جنوب الجنوب الشرقي. يمكننا رؤية حقول مخضّ بين جعدة والعشة إلى الداخل من عند الجرف.

واصلنا تعرجاتنا عبر الغابة، وتوقفنا للنزهة لتناول الغداء في فرجة مريحة في الغابة فوق منبع المخاوية، وتحركنا منها إلى أطلال لقرية صغيرة تسمى السهوة، والتي هجرها ساكنوها الذين كانوا من أهل الخميس ــ فخذ من بني مغيد ــ منذ زمن بعيد بسبب عدم الأمان الذي كان سائداً، وانتقلوا منها إلى قرية السودة نفسها، التي تبعد فقط بمسافة نصف الميل. تنتمي قرية ثالثة، الضحية إلى الفخذ نفسه، ولا تزال مأهولة، وتبعد نصف الميل من السودة ومن السهوة وتكوّن القرى الثلاثة مثلثاً متساوي الأضلاع يغطي هذا الجزء من القمة وحقول ذرتها الواسعة. يعيش في قرية المخضّ وقرية أخرى، بطينة مجموعة من فخذ علكم، غير أن معظم المنطقة الملامسة بين الأرض الرأسية للعشّة ووادي ضلع يسكنها بني مغيد، بما في ذلك قرية الرحمة. تحركنا من السهوة إلى نصب الشبرام، وهي ربوة تبرز وتطل على جبال تهامة ناحية الشمال من مجرى الجو الذي لم نتمكن من رؤيته بوضوح من فاس.

كان الوقت ظهراً وكنا قد غادرنا فاس عند الساعة التاسعة صباحاً، غير أنه في هذه الفترة هبت عاصفة فوق جبال تهامة، برغم أن كل شيء تجاه الشرق من الجرف قد نعم بالشمس الساطعة.

---

(١) قرية الحرملة: تقع في تهامة عسير، وهي مكان حصين كان يلجأ إليه أمراء آل عائض عند الضرورة أمام هجمات خصومهم. (ابن جريس).

تدحرجت سحب سوداء ثقيلة مرعدة شمالاً، مسقطة أمطارها على وادي الشعبين وبعيداً إلى وادي حلي، وترتد فجأة جنوباً حاجبة عنا المنظر قبل أن نتمكن من رؤيته كاملاً، لقد رأينا على أية حال، بعيداً ناحية الغرب، الموقع الذي يتصل فيه وادي الشعبين مع مجرى آخر من الجرف -واسمه وادي شصعة الذي ينبع من سمّا وهو ممر طريق البغال-، ليكوِّن بداية وادي حلي. تقوم في هذه النقطة قرية شوكان أسفل سلسلة ذات غابات، تكوِّن امتداداً لخط سفح وعرفة، ربما على بعد أربعة أميال وهو مدى تحليق الغراب. يقع مجرى وادي الشعبين إلى ما وراء هذه السلسلة وخلف شوكان، والذي منه، يجري وادي حلي ناحية الشمال الغربي عبر التلال إلى أن يلتف ناحية البحر قليلاً من ناحية الشمال الغربي.

كانت نصب الشبرم أعلى قليلاً من قمة فاس، غير أننا جعلنا من قمة الحدبة أهل مجده، أعلى البقاع، معلماً ومرجعاً لتجولاتنا. كان ارتفاعها، بناءً على جهازي اللأسلكي لقياس الارتفاع، حوالي (٩,١٥٠) أقدام فوق سطح البحر، ولا يبدو بالتأكيد أن هنالك موقعاً أعلى منها في وادي ضلع وشعار. يفضل الأهالي المحليون هذا الموقع، كأعلى نقطة لديهم، وقد ترك أسلافهم على جلاميدها الجرانيتية سجلاتهم للحيوانات التي كانت معروفة لديهم - الغزلان، والوعل، والمها، والنعام، إلى جانب خربشات من طبيعة غامضة لم أفهمها. وجدت في الإجمالي سبع مجموعات منفصلة لمثل هذه الرسوم الصخرية، كلها بدائية نحواً ما وتقريبية، محفورة على سطح الجلاميد، وقد يكون هنالك الأكثر منها.

كان المنظر العام كما وصفته من قبل، غير أننا نستطيع الآن رؤية رابية حمومة في الجزء الأعلى من وادي بيشة، وجبل ضمك في السفوح الجبلية الشرقية.

ظهرت سمات أخرى ناحية الشمال الغربي، حيث تقع الرأس الأرضية المطمر وحقول محجر الموحلة -ولا توجد بها قرى- أمامنا على بعد الميل الواحد والسلسلة الطويلة. تقع تهلل منحرفة حولها من الجانب الأيمن، وفيما يليها تقع الهضبة المسطحة - الشرف، مع عدد كبير من الحقول وجبل رثبا. كونت كل هذه جزءاً من الجرف وما جاوره. تقع الحقول بين السودة والضحية - بالمناسبة: كل هذه القرى الجبلية مبنية من الحجر، علماً بأن الحجارة غير مصقولة- كما تُرى من هنا، في منخفض من مساطب، يضيق من عند وتر أعلى إلى مقدمة ضيقة عند النهاية السفلى. أعطاني هذا المنظر، مرة أخرى، الانطباع بمسرح روماني صغير، مثل المنظر الأوسع على الجانب الشرقي من السودة.

تقع القرية الأخيرة على بعد ثلاثة أرباع الميل ناحية الشرق من موقعنا، تقع الضحية فقط على مسافة ربع الميل على الخط نفسه تقريباً. كانت كل من حزم وكتف الرمادي، كلاهما ناحية شمال (الشمال الغربي) أقصى نقطة شمالية، استطاع دليلي من السودة أن يسميها لي، غير أنه توجد أرضان رأسيتان بارزتان، إلى البعيد وفي الاتجاه نفسه قيل إنهما أراضٍ أجنبية تابعة لبللحمر[1]. قيل لي إن النقاط الإدارية الحدودية بين السراة وتهامة، كانت قمتا فاس ونصب الشبرم.

عدنا إلى السودة قبيل الغروب وجلست لحظة فوق السطح أراقب السحب الوردية للغروب البديع، مظللاً حواف الأشجار التي جمَّلت الأرض المرتفعة عند حافة الجرف.

(١) يقصد بـ (أجنبية) أي أرض تتبع لقبائل أخرى، غير بلاد السودة التي شاهد منها تلك الأرض الأجنبية في بلاد بللحمر الواقعة إلى الشمال من موقع مشاهدته في أعالي جبال السودة. (ابن جريس).

هبطتُ، مع تقدم الليل إلى ظلام غرفة الجلوس الكهفية، حيث أمضينا الساعة التالية أو الساعتين في حديث على أكواب القهوة والعشاء وقهوة أكثر وحديث أكثر في لقاء لطيف. كان موضوع «المرشد» هو الأكثر استمرارية للخلاف بيني وبين رفاق سفري في الجزيرة العربية ليس بوصف كل منهم بأنه «مرشد» ولكن في مقدرة المرشد كخبير في الجغرافية المحلية. تفهم المرشد عبدالله بن رشيد، برغم أنه من مواليد المنطقة، من أحاديث زملائه في خدمة الأمير أن النهج النجدي المثالي هو أن تنحصر مهمة المرشد فقط في توضيح الطريق، وليس في إشباع فضول المسافرين. أنا أخالف هذا النهج بالطبع، غير أن الرجال المحليين الذين يعرفون جغرافيتهم، كانوا بصفة عامة إلى جانبي، وأهم ما برز كان وعدهم بأنه في طريق العودة إلى أبها في صباح الغد، فإن أحسن رجل لديهم، مقيم في الضحية، سيكون تحت تصرفي كمرشد جديد. عدت إلى السطح، تاركاً رفاقي يواصلون الحديث، أو النوم الخفيف، حسب المزاج. وصحوت في اليوم التالي قبل الساعة الخامسة صباحاً وبدأنا الرحلة بعد حوالي الساعتين بعد ذلك، سيراً على الأقدام خلال الجزء الأول للطريق، علماً بأن حمير العفش ومرافقيها قد تحركت مسبقاً على الطريق النظامي.

وصلنا بعد تتبعنا حافة الجانب الغربي الطويل للقرية تجاه هضبة ذات أشجار كثيفة، ناحية الجنوب الشرقي، إلى ممر ضيق طبيعي مكوِّناً الفاصل بين شعيب تهلل الذي ينساب شمالاً ماراً بالسلسلة الجبلية التي تأخذ الاسم نفسه، والتي سبق ذكرها، ليتحد مع شعيب آل قاسم، وهكذا لري قرية الحمرة إلى أسفل وفي مجرى آخر، وشعيب خبيبي[1] يجري في الاتجاه المعاكس عبر الحقول المنحدرة

(١) شعيب خبيبي يسميه بعض سكان المنطقة شعيب (خبيبو). (ابن جريس).

للقرية الجميلة حربة تجاه قرية عثـربان ثم عبر شعيب بالاسم نفسه إلى وادي أبها. صعـدنا مرة أخرى، فـيما يلي آل القـاسم، الذي هبطنا من مسـتوى قمـته، إلى سلسلة منخفضة ناحية الغرب قليلاً من قرية آل محسن، وهي مجموعة من المنازل المتهدمة بين حقول متساوية. كنا هنا على ارتفاع (٢٥٠) قدماً على سفوح السودة، والجانب الـرفرفي من التل من خلفنا، بينـما كانت توجـد إلى جنوب آل مـحسن والتي عبرنا بها سريعاً بعد حين، قريتان صغيرتان هما السوق والمعجزة في الطريق إلى آل رحمة وعلى حافة الجرف.

واصلنا السير إلى الطريق الرئيس، عـند الساعة التاسعة والربع صـباحاً، مرة أخرى عند مـضيق غاوة وصعـدنا من عنده إلى أعلى السفح المنحدر للتل نفـسه، الذي كانت قمتـه على ارتفاع (٨,٧٠٠) قدم فوق سطح البحر. كانت سـفوحها الخارجية، ناحيـة الجرف، عارية وصخرية، بينما كانت جوانبـها المواجهة للوادي، أسفل مغطاة بالعرعر بكثـافة. تقع قرية صغيرة تسمى كفيـة عند قاعدته في مسيل ضحل على الجـانب الجنوبي الغربي يسمى سـبا والذي عند اتحاده مع خبـيبي تقع قرية السـوق الصغـيرة مواجـهة لوادي ضـحل آخر به قريتـان صغـيرتان شط آل خضران. ظهر عدد من القـرى الصغيرة ناحية الجنوب على جانبي مـصرف خبيبي وهي: رأس السر وهي الأقرب إلينا على بعد الميل الواحـد، والقرن ناحية الجنوب على بعد مـيلين من الوجة التي تقع خلفـها عن قرب. كـان لكل قرية من هذه، بالطبع حقول ذرتهـا الصفراء، مبعثـرة حولها، ولا بد أن يكون هنالك بلا شك، مجموعات أخرى سكنية زراعية في طبقات هذه الجبال، لم أرها. تمثل قرية خبيبي -بالمناسبة- الحدود القـبلية بين علكم وبني مغيد والأخيـر تشمل القرن، والوجة، وشط آل خضران، والرحمة، وتضم علكم، بقية القرى الصغيرة التي ورد اسمها. تكوَّن المخَض بمفردها، عالية في الجبال، جزيرة من علكم في منطقة بني مغيد.

تعرف قمة غاوة محلياً باسم قرن آل غليبة، والتي من عندها يهبط مسيل يسمى شعيب غاوة، عن طريق مضيقها، الذي ورد ذكره، إلى القرية الجميلة ذنب غاوة في مساحة واسعة مستوية، في القاع. ليتصل هذا المسيل في هذا المكان، مع شعيب عشران أو قريباً منه.

توقفنا عند هذه القرية، على ارتفاع (٦٠٠) قدم على سفوح جبل غاوة حوالي الساعة (١١) صباحاً، لأجل تناول وجبة الغداء وبعض الراحة، التي كانت بالنسبة لي هي صيد الطيور. قمت بمطاردة زوج من طيور العقعق داخل أجمة من أشجار العرعر -تسمى محلياً ضوضية- غير مهتم بنصيحة مرشدي لأن أتركهما وشأنهما، ذلك لأنني لن أجد مثل هذه الطيور المراوغة. ولم أتحصل، حقيقة، على أيٍّ منها عند القمة، برغم أنني قد شاهدت العديد منها وأطلقت الرصاص على أحدها فسقط كالحجر عبر الأوراق الكثيفة للعرعر. توقعت أن أجده ميتاً عند أسفل الشجرة، وعبثاً كانت محاولة العثور عليه! أصررت هذه المرة أن أحصل على عينة مهما كانت مضايقات المطاردة، ويبدو أن الحظ قد واكبني، ذلك لأن الطيور تظل في تجمعاتها ولا تغادر منطقة الخطر، التي توجد فيها، أعشاشها بلا شك. لمحت أخيراً الطائر الذكر مختبئاً في كثافة الغطاء النباتي التحتي عند أسفل شجرة عرعر طويلة، وبدأت أتقدم وبحذر على طريدتي التي كانت مختبئة تماماً في الغطاء الكثيف، عندما ظهرت الأنثى بصرخة حادة واتخذت موقعاً واضحاً فوق الشجرة مكشوفة تماماً، زاعقة تحذيراتها، وتعليماتها إلى رفيقها، الذي واصل تواريه. تحركت إلى مسافة تصويب سهلة، محاولاً كل ما يمكن للبحث عن الطائر الذكر غير المرئي، ورفعت بندقيتي فجأة، ناحية الأنثى، وهي محذرة زوجها إلى آخر لحظة، فسقطت ميتة إلى الأرض.

ارتفع رأسمالي فجـأة أمام الجمهور المحلي، فقدموا لي أربعـة فراخ عقيق لم ينمو لها ريشها بعد من عش مجاور وحـاولت أن أجعلها تظل على قيد الحياة بلا نجاح. ارتفـعت سمعتي كـرامٍ وهداف ماهر أكثـر في الطريق، حينما اقـتربنا من السحـراء. شاهدت طائر الوقواق على شـجرة كبيـرة على مسافة، وكنت أراقـبه بطريق غير مـباشر حين طار، وأسقطته رصاصـتي ميتاً. قد تكون رصاصـة قياس (٠,٤١٠) مع بندقية أم سبع قاتلة، إذا أصاب المرء الهدف.

عرضوا عليَّ نبـاتاً يسمى مليان في قرية ذنب غاوة، وهـو نبات يصنعون منه في مـرتفعات هـذه البلاد ضـمادة لحالات الـطهارة. تجولـت حول حقـول الذرة الصفراء، حيث كـانوا قد بدأوا حصاد القمح، كما قـمت بزيارة مسيل غاوة الذي كان به -قليلاً إلى أعلى- شـلال مياه جيد. تستخـدم هذه المياه للري وقد وجدت في الغطاء النباتي الثري حول جداولها طائر التمهيد الجميل الأسود وبأعداد كبيرة. ولأجل المقابلة، فإن حجلي ويسمى قهبي (جمع قهابي) كان متوافراً هنا في غابات العرعر التي تحيط بالمزارع عند أسفل تل غاوة.

كان طريقنا، عندما واصلنا مسـيرتنا من هنا، مبكراً عند الظهر، مماثلاً لذلك الذي سلكناه في الصعود. مكثنا فترة في السحراء، لسقيا الخيل من بئر في المجرى أعلى القرية، وأيضاً لـنشاهد جانباً منه، وهو يتكون من قسـم رئيس يحتوي على قصـر رهيب ومجـموعات من عـشش عادية. قـمت أيضاً بجمع بعـض النباتات الناميـة بغزارة على جـانب النهر وتطلعت للطيـور، والتي من بينها كـانت الطيور النساجة أكثرها وفرة. كان مجرى السـحراء الفعلي رافداً لعشران إلى الشمال منه، والذي في اتجاهه ينساب، ماراً بقرية صغيرة تسمى آل زيدي على بعد نصف الميل.

لقد سرت مرتجلاً بالفعل، كل المسافة من السودة إلى هذا المكان، غير أنني الآن لحقت برفاقي وامتطيت ظهر حصان للسفر عبر الممر الشرقي إلى قواعدنا في أبها حيث وصلنا عند الساعة الثالثة والنصف عصراً. وأمضيت بعد ذلك جزءاً من المساء في شحن ثلاثة صناديق وجوال من العينات للمتحف البريطاني -طيور، وثدييات، وحشرات، ونباتات، وصخور- هي مجمل عيناتي التي جمعتها خلال الشهر الماضي. وقد أرسلتها في الصباح التالي إلى مكة وجدة بسيارة البريد.

كان ذلك يوم الخميس، حيث زرت سوق خميس مشيط، ورأيت حين عودتي إلى أبها، وأنا أتجول قبل الغروب، ضرباً بدائياً من لعبة الكريكيت تؤدى في بطن الوادي. استخدم فيها حجر كبير، أو شريحة صخر مقام عصاة الوكت وحجر مكوَّر مقام الكرة، التي تقذف، بينما كان ضارب الكرة يهتم فقط بالدفاع عن الوكت حاملاً قطعة خشب متينة. لم يكن هنالك ركض أو جري. للأسف لم أسجل الاسم المحلي لهذه اللعبة[١]. كان هنالك شيء آخر من الخصوصية حول أبها هو صناعة أوعية الطبخ من الفخار، إذ أن لها أشكالاً متباينة، من لبنات وردية ذات لمعان مما أكسب القدور مظهراً معدنياً. وكانت تباع بأعداد كبيرة في الأسواق هنا، وفي المقاطعة المجاورة[٢]. قيل إنه في عام ١٩٣٤م، قام موظف

(١) هناك العديد من الألعاب الرياضية ووسائل التسلية الاجتماعية القديمة التي كان يمارسها سكان جنوبي البلاد السعودية، حبذا لو تصدى لها أحد الباحثين فيخرج عنها دراسة علمية أكاديمية جادة، وللمزيد حول هذا الجانب، انظر: كتابيّ ابن جريس. **أبها حاضرة عسير** ص ٢٦٤، **وعسير ١١٠٠ – ١٤٠٠**، ص ١٠٨ – ١١٧ . (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن الصناعات المحلية في منطقة عسير خلال القرون الماضية، انظر كتاب: – **عسير ١١٠٠ – ١٤٠٠**، ص ١٤٧ – ١٦٣ . (ابن جريس).

حكومي بارز بإجراء عقد زواجين في شهر واحد، أثناء أداء مهمته هنا، كان الأول لسيدة من بني مـغيد وانتهى بالطلاق بعد عـشرين يوماً بتفضـيله لامرأة أخرى من علكم، التي تحصلت على طلاقها بمغادرة ذلك الموظف بعد عشرة أيام لاحقة.

كانـت تكلفة الزواج من امـرأة سبق لهـا أن تزوجت مرة واحـدة أو أكثـر، وتسمى راجع، يتباين بين (١٠) و (٢٠) ريالاً أما في حالة الفتاة العذراء فقد كان بالطبع، أعلى من ذلك[١]، وفي حالة النساء الرقيق -حيث يقوم بعض أبناء حسوة والشعبين بدور الوسيط الرئيس في هذه التجارة في الفـتيات الأفريقيات من ساحل تهامة، اللائي كن يختطفن غالبـاً، أثناء رعايتهن لقطعانهن في الغابة- كن الأغلى سعراً على الجميع حسب درجة الجمال وإنجازات أخرى.

كان آخر فـقرات برامجي للمرتفـعات، هو أن أقوم بزيارة شعـار، وقد حدد الأمير اليوم الثالث عشر من يونيو للقيام بذلك، وقد أعارني عبدالله بن رشيد مرة أخرى، وسيارتين لرفاقي وللعفش. تحركنا عند الساعة السابعة صباحاً وعبرنا جسر القـابل وسرعـان ما مـررنا، على يسارنا وعن قـرب، بقريتي رظف الصـغيـرتين وقصريهـما أو قصورهمـا الثلاثة المدمَّرة المتبـاعدة عن بعضهـا، وبدأ طريق العربة يتعـرج فيما يلي هذه القـرى، صاعداً جانب التل إلى ممر يسـمى أم الركب. كان الطريق طويلاً وصعبـاً وخشناً إلى حد بعيـد، وقد استغرقت رحلة السـيارات مدة (١٥) دقيقة لكي تصل إلى القمة، حوالي (٣٠٠) قدم فوق أبها، وعلى بعد ثلاثة أميال نـاحية الجنوب. كانت هذه القـمة نقطة حدود بين بني مغـيد (في الجنوب)

(١) يوجد لدى معظم الـقبائل وثائق اجتمـاعية تنص على اتفاق أفـراد كل قبيلة في تحديد المهـور وما يتعلق بأوضاع الزواج بين أفراد القبيلة الواحدة. (ابن جريس).

وعلكم (في الشمال). وتقع أمامنا مباشرة وتجاه الشمال، تلال سر بن حامد والاسم الأول مشتق من مسيل السر والذي تتبعناه إلى أسفل من الممر، وإلى اليسار إلى أسفل أكثر، حيث اتجه ناحية الشرق ليتصل مع وادي ابن هشبل، وهو أحد روافد بيشة.

دخلنا شعيب بني مغيد[١]، بعد عبورنا المضيق في سلسلة منخفضة مكونة جانبه الأيسر، وعن طريقه وصلنا سريعاً إلى قرية المغمر التي كان رئيسها، الذي توفى حديثاً، مشهوراً بأنه قد بلغ من العمر مئة سنة. تقع قرية عطف بن حامد، عكس اتجاه الوادي، من هذا الموقع -على بعد ستة أميال من أبها- في منحنى شعيب غير مرئي من الطريق بسلسلة جبلية منخفضة -يبدو أنها القرية الرئيسة لمجموعة قرى بني مغيد هذه[١]- وعبرنا بعدها جدولاً صغيراً يغذيه نبع اسمه، واسم القرية التي بجانبة، عين ابن مصافح أو باختصار العين، تبدو القرية مدمرة وسط المساحات المعتبرة لحدائق الفواكه التي تحتوي على أشجار التين، والمشمش، وغيرهما، وكان بينها مستعمرة لطيور السوَّادية تمرح. اشتملت القرية على مسجد مهجور وبئر عادية مبطنة بالحجارة على جانب الطريق، وقد وجدنا إلى ما يليه، أن الطريق قد سدَّ بجدار حجري مبني من جانب إلى آخر للوادي الضيق لحجز الماء لأغراض الزراعة. كان علينا أن نزيل جزءاً من الحاجز لتتمكن السيارات من العبور. وصلنا، من وراء هذا الجدار إلى حدود علكم وبني مالك، وهو شعيب غيرمهم استدار سريعاً ناحية الشرق من الطريق ليتصل مع شعيب السر على مسافة قليلة في شبكة من تلال منخفضة.

(١) هذا الشعيب يتبع قبيلة علكم العسيرية، ويطلق عليه شعيب (المغمر). (ابن جريس).

(٢) الصحيح قرى علكم وليس كما ذكر المؤلف. (ابن جريس).

تبتعد الحدود من هذه النقطة عن المجرى وتضرب من خلال ممر بين تلال منخفضة على الجانبين، ثم تتصل بعد حين عند مضيق (علامة حدودية أخرى)[١] ويدخل على جانبه الآخر إلى وادٍ واسع لطيف يجري فيه مجرى سر بني رزام الذي يبدأ من مجموعة التلال على مسافة نصف ميل إلى اليسار من المضيق. مررنا بعد قليل بأول المساكن (آل محمد بن علي) بقرية سوق السبت تركنا السيارات وبعد نصف ميل آخر على جانب الطريق وعبرنا المجرى لزيارة القرية الرئيسة لهذه المجموعة من القرى، والتي امتدت إلى الشمال على امتداد الوادي مع العديد من مزارع الفواكه هنا وهناك، إلى جانب حقول الذرة الصفراء. يشتمل هذا المركز التجاري على قرية السوق وقريتين صغيرتين تسميان القرايات وتكون كلها ما يبدو وكأنها قرية واحدة. كانت القرية التالية على بعد الميل الواحد مع اتجاه الوادي، هي آل صعب على الجانب الأيسر، وتقع قرية ذمالة في مقابلها عبر المجرى. تجري الحدود بين بني مالك (شرقاً) وربيعة ورفيدة، فيما وراء سلسلة منخفضة معترضة هذا الوادي من ناحية الغرب (أو على امتداد قمتها). يسكن قرى السوق مجموعة بني رزام، قسم من بني مالك.

كان علينا أن نمر، على مسافة أسفل الوادي، عبر أراضي قريتين أخريتين هما بالتتابع الملاحة وآل مجمل. تتكون قرى أخرى تابعة لبني مالك، يبدو أنها قبيلة ضخمة، من آل مسلت، والشلفاء، وآل الصبح، وآل هتان، وآل جاهل، والطحل، وصعبان، والمجزعة، وقرين، وآل بيشة، وهتان، والجنفور، والعطفة[٢]،

(١) هذه العلامة الحدودية تقع بين قبيلتي علكم وبني مالك العسيريتين. (مقابلة مع عوض بن ناحي العسيري، طالب دراسات عليا في قسم التاريخ، جامعة الملك خالد). (ابن جريس).

(٢) الاسم الصحيح هو (العطف) (ابن جريس).

والخارجة، والخنق، والموسطة، والنبعة، والجعجاع، وآل جمعة، وسبل المحالة، وهما قريتان: العين، والعطف، وعدوان، ولحسان أو (آل لحسان)، وآل بن نعمان، وآل جرجر، وحجلا، وآل الغليظ، والمجارذة، وآل بالكباش، وآل الجندي.

يقيم شيخ بني رزام ويدعى ابن عفتان[١]، في ذمالة، غير أن يوم زيارتنا له كان يوم السبت وهو يوم السوق المحلي، لذلك فقد حضر الشيخ إلى السوق وقد قوبلنا من طرفه بحفاوة وترحيب وعلى مستوى مشرف، من جانب المسؤول المقيم في المنطقة واسمه محمد بن لبدان. لقد كان شخصية معروفة ومحترمة ولها معجبون في كل الريف، وقد رفع هذا من مقامه ومقام أسرته، إلى الصدارة في موقع القيادة عند درجة ليست بأقل من تلك للشيخ نفسه. انتعشت أموره حتى غدا رجلاً غنياً بالمستوى المحلي، واعترف الجميع بجاذبيته وبكرمه. ليس له أعداء، وكان يترأس جلساته في الصالة. لقد قضينا أكثر من ساعة نستمتع بكرمه وسرده للتاريخ المحلي وخرجنا من ذلك بانطباع حسن لشخصيته الجذابة والخارقة للعادة. كانت إجراءات السوق تكراراً ضعيفاً لمشاهد مماثلة في خميس مشيط وفي أبها[٢]، والتي كانت تبعد فقط بحوالي ثمانية أميال على الطريق. كان الارتفاع هنا مماثلاً لذلك في أبها، ذلك لأننا كنا نهبط باتزان عبر ممر أم الركب.

عدنا إلى السيارات وواصلنا رحلتنا مارين بآل صعب، والمصرمة، وذمالة ومن ثم إلى الملاحة، عبر قرية تنتشر فيها بساتين الفاكهة والقصور المنفردة

(١) ابن عفتان نائب قرية بني رزام المالكية العسيرية والشيخ هو ابن معدي. (ابن جريس).

(٢) تكاد تكون جميع الأسواق الأسبوعية القديمة في الجزيرة العربية متشابهة في نظامها وترتيبها. (ابن جريس).

أو بمجموعات من منازل تمتد إلى مسافة الميل الواحد أسفل الوادي. بدأت قرية آل مجمل، مباشرة فيما يلي هذه القرية وهي في داخل المجرى الذي كان عرضه حوالي (٤٠٠) ياردة، ومنتشرة على امتداد (١,٥) ميل أو أكثر، وذات بساتين فواكه مزدهرة وحقول واسعة. عبر الطريق هنا من عند الجانب الأيمن للمجرى إلى الجانب الأيسر، ليمر بالقرية التالية ذات المساكن المبعثرة، والبساتين في متسع واضح للمجرى على يميننا، حيث يميل ناحية الشمال الشرقي بعيداً عن الطريق، ليتصل في نهاية الأمر، مع مجرى بيشة بعد مسافة عبر السفوح الجبلية. كنا هنا على ارتفاع (٢٥٠) قدماً تحت مستوى أبها، غير أن الطريق الآن يتجه ناحية الشمال، وقد بدأ يصعد قليلاً في اتجاه سلسلة منخفضة تحجب ممر شعار. تقع قرية آل مسلت إلى البعيد، على يميننا وعلى الشعيب الذي كنا قد غادرناه قبل قليل، بينما بعد ذلك قليلاً، ضربنا في الحوض الضحل الذي يسمى شعار المزرع الذي ينساب موازياً لسر بني رزام[1] ويمر بقرية المجزعة ليتصل مع مجرى ابن هشبل كما فعل السابق، في طريقه إلى بيشة.

خرجنا منه إلى المنحدر المريح لسلسلة جبال شعار، الذي تقف عند قمته ثلاثة أبراج مراقبة وثلاثة أبراج حراسة، كل منها يقف على قمة صغيرة ولمحنا عند الوصول إلى المضيق المنخفض -العبل- ممر شعار، يمتد أمامنا وعليه ثكنات الأتراك المدمرة وقلعة صغيرة غير أنها جليلة، قائمة في موقع جيد لحماية البناء الكبير من أي هجوم. كنا على ارتفاع (٢٢٠) قدماً تحت مستوى أبها، عند الثكنات التي قضينا فيها وفيما جاورها، حوالي الساعتين، ونبعد الآن عن أبها بمسافة (١٦,٥) ميلاً ونصف الميل.

(١) في الواقع أن شعار يبعد عن بني رزام شمالاً بحوالي (٥ ــ ١٥) كم .(ابن جريس).

كان الغرض من المعسكر الحربي في شعار في عهد الأتراك -وهو الآن مهمل تماماً من جانب الإدارة السعودية- هو حماية خط المواصلات الرئيس بين أبها وميناء القنفذة على البحر الأحمر. أُنشئ هذا الطريق مع صعوبته لتي لا تزال قائمة في بعض الأجزاء، للحركة ذات الدواليب ومع قليل من أعمال الصيانة، يمكن إعادته كطريق سيارات نظامي. لا بد وأن يكون هذا قد حدث منذ زيارتي، حيث إن الحكومة السعودية تبذل اهتماماً كبيراً بمشكلة المواصلات. سيعود بعدها البناء التركي القديم مفيداً لتخزين البترول واحتياجات أخرى.

كانت القلعة والمعسكرات الصغيرة، والثكنات في حالة سيئة من الدمار في عام ١٩٣٦م. تم نزع كل الأجزاء الخشبية بواسطة رجال القبائل في المنطقة لأجل استخدامه للوقود. وأصبحت الثكنات هياكل بأبواب فاغرة ونوافذ تصرخ الرياح خلالها في دوي مخيف. كانت تغطي مساحات كبيرة من الجرف العالي الذي يسيطر على الهاوية والساحة، وحصل تساقط من طرف الجرف من ارتفاع (١٠٠٠) قدم أو يزيد، إلى سفح وادي تية الذي على امتداده يجري طريق العربات ماراً بالقريتين الصغيرتين العارضة وبعرور، واللتين يمكن رؤيتهما جزئياً عبر الامتداد الأول للمجرى الذي يبلغ طوله ميلين، إلى محايل التي لم نرها، وقد قيل إنها تقع إلى الجنوب[(١)]، على سفح تل مرتفع يسمى القرين الذي يبدو أنه على بعد ستة أميال من هنا. ينساب تيه إلى ما وراء محايل ليتصل مع وادي حلي[(٢)]

(١) الواقع أن محائل بلدة حضارية قديمة في تهامة، وتبعد عن مدينة أبها ناحية الغرب، وليس إلى الجنوب، بحوالي (٨٠)كم. (ابن جريس).

(٢) وادي حلي: هو أكبر أودية تهامة الشمالية حيث يرفده عدد كبير من الروافد التي تنبع من السفوح الغربية لسروات عسير مثل:ـ وادي تيه، ووادي قنا والبحر، ووادي الريش، ووادي بقرة، ووادي الهيجة، ووادي شري. للمزيد انظر: عاتق بن غيث البلادي. **بين مكة واليمن** (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص ١٨٩ وما بعدها. (ابن جريس).

الذي يقال إنه يقع فيـما وراء سلسلة جبلية عالية ويرى في مـشقة، خلف القرين. كان بطن الوادي من رمل عميق، وكـان سير السيارات فوقه صعـباً جداً، ويتباين عرضه من (٤٠٠) إلى (٥٠٠) ياردة في الامـتداد المرئي، ويجري ناحيـة الشمال الغـربي، وتتجـه الجـبال نحـوه على الجـانبين في صخـور عـمودية على ارتفـاع (٢٠٠٠) قدم، مرتبة في سلـسلة من الكتوف التي يجد أهل القرى الصغيـرة فيما بينها بعض التربة الصالحة للزراعة فيزرعونها.

اصطدم الوتر الضحل للجرف على الجانبين مع الجبال الضخمة. كان من بين تلك الجـبـال التي على الجـانب الأيمن، جبل بـعرور ومن خلفـه سلسلة جـبليـة مرتفـعة، وكلاهمـا يتجه ناحـية الشمـال الغربي بالنسـبة للثكنات، وتتـبع منطقة بللحمر التي تنفصل بواسطة شريط وادي تيـه عن بلاد ربيعة ورفيدة واللتين كانت سماتهمـا الرئيسة هي الأرض الرأسية لأملحي على بعد ثـلاثة أميال إلى الغرب، وتقع قمة مبارك خلفها مباشرة.

يشمخ تل سـعد، قريـباً منا، وعلى بعد حـوالي الميل الواحد ناحـية الجنوب الغربي، تفصله قلعة شعار عـن الثكنات وتكون سلسلة وقمة خوير من خلفه على مسافة خمسة أميال. يكوِّن هذا -كما كان حال مرتفعات المبارك وبعرور- جزءاً من السلسلة الظهرية الرئيسة الجبلية للسراة، أو الحجـاز، كما يسمونها إلى الشمال من وادي ضلع. يقف على مسـافة الميل الواحد إلى غرب الجنوب الغـربي من موقعنا قمتان عظيمتان من الصخور على جانبي جرف شديد الانحدار وعميق على جانب الجبل ينحدر منه مسيل شعيب رفيدة[1] إلى رأس وادي تيه.

(١) رفيدة هذه أرض عسيرية، وهي: (ربيـعة ورفيدة) إحدى قبائل عسير الأربع الرئيـسة. أما رفيدة الأخرى التي سبق ذكرها كثيراً في الصفحات السابقـة وتقع إلى الجنوب من خميس مشيط فهي قحطانية، وتسمى (رفيدة قحطان). (ابن جريس).

أمكننا رؤية جبل نمري ناحية الجنوب على بعد (٩) أو (١٠) أميال، وهو بقعة أخرى عالية تتبع بلاد ربيعة ورفيدة، بينما يقف التل المنخفض واسمه جبل مجاريض إلى الخلف على الطريق الذي كنا نسلكه، في مكان ما، بالقرب من الحدود بين القبيلة الأخيرة وعلكم (بني رزام). ووقف تل على هيئة القبة قليلاً إلى الخلف، ناحية الجنوب، يسمى آل عاصم إلى جوار قرية بالاسم نفسه لعلكم على جانبه القريب. يقال إن شعيب رفيدة يصرف كل السفوح الشرقية لبلاد ربيعة ورفيدة إلى وادي تيه.

هكذا كان المنظر العام، ناظرين إليه من ناحية الثكنات تجاه البحر، حيث كان الجندي التركي قد حضر إلى هنا، في تلك الأيام المنصرمة، لخدمة هذه البلاد في أرض المنفى المظلمة هذه، لا يزال طريقه الذي سلكه للصعود من رأس وادي تيه عبر المنحدر، المغطى بالحصى، واضحاً للعيان وهو يتعرج، على الأقل، في تلك المواقع التي لم تنجرف إلى الهاوية. يصل هذا الممر، على بعد (٢٠٠) ياردة من الثكنات، إلى قمة الجرف في انحدار سهل، والذي عند نهايته يجد المجند الجديد، ما هو ملائم بما فيه الكفاية، المقبرة الكبيرة، التي دفن فيها العديد من مَنْ قد سبقوه.

تمتد المقبرة من طرف الهوة بعيداً عن الثكنات شاغلة جزءاً من مساحة السهل الصخرية الكئيبة، والتي لا بد وأن قد خدمت كأرض استعراض في تلك الأيام الجميلة المنصرمة، تجاه اليابسة وعند الثكنات. تم إغلاق هذا الممر من الجانب البعيد لسلسلة عبل بالقلعة الصغيرة والتي تقع ناحية الجنوب الشرقي، ويسدّها كذلك، على الجانب الشمالي الشرقي، على بعد الميل الواحد، تل غفلة الصغير. يجري بين الاثنين، منخفض ضحل، يبدأ من المنحدر الشرقي للجرف، ويتصل في نهاية الأمر مع مجرى شعار المزروع. أقام عليه الأتراك، قليلاً إلى الخلف من

جانبه الأيمن، وعلى بعد (٥٠) ياردة شرق الثكنات، حوضاً ذا حجم وسط، ليعمل خزاناً لمياه الأمطار والسيول لاستخدامها بواسطة الحامية. وقفت إلى جواره شجرة طلح حزينة، منفردة، إلى جانب أشجار طلح أخرى وجنبات ممتدة تجاه وإلى داخل المنخفض. كانت البركة خلال زيارتي، مملوءة بالماء غير أنها لا تعطي الانطباع بالاستدامة كخزان. كانت المياه في تلك الأيام بلا شك، تضخ من آبار قرى بني رزام خلال أشهر الصيف.

انتهت زيارتنا إلى شعار، وهو مكان حزين، ميت، ليس به إلاَّ طيور الغراب وقنبرة الصحراء لإحياء منظر للخراب، كان ذات يوم مقراً للراغبين في حماية السلام في هذه الأرض القاسية. أدرنا ظهورنا نحوها في فترة ما بعد العصر الباكرة لنتحسس خطواتنا إلى أبها. توقفنا عند ذماله مدة نصف ساعة لزيارة الشيخ بن عفتان كما قد وعدناه بذلك، وتلكأنا عند السوق في سرور برفقة محمد بن لبدان. تناولنا القهوة والشاي في كلا الموقعين بينما كنا نتحادث حول شؤون العالم، ووصلنا أبها بعد ذلك قبل الغروب بنصف ساعة. غادرت أبها في اليوم التالي إلى الأبد، ولكني تركتها بذكريات حلوة لكرمها الجذاب وبيئتها الجميلة. لقد وفرَّت لي أول مذاق حقيقي «للجزيرة العربية السعيدة» عند القدماء وقد جاوزت في ذلك كل توقعاتي[1]. لقد أمدت الطبيعة هؤلاء الناس البسطاء، بمحيط عظيم وكانوا في قناعة للحياة مع الطبيعة، يتقاتلون ويتشاجرون فيما بينهم، كما فعل أسلافهم من قبل، حتى جاء فجر السلام السعودي.

(١) من يطالع مدينة أبها اليوم وما حولها يجدها أصبحت من المدن الجذابة الجميلة في المملكة العربية السعودية بل في دول الخليج العربي، لما امتازت به من مناخ جميل وطبيعة خلابة، للمزيد انظر: **كتاب أبها حاضرة عسير**(دراسة وثائقية) ص ١٤ وما بعدها. (ابن جريس).